بحث محكم | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 08 غشت 2022

الاتجاه التأليفي
عند حاييم الزعفراني

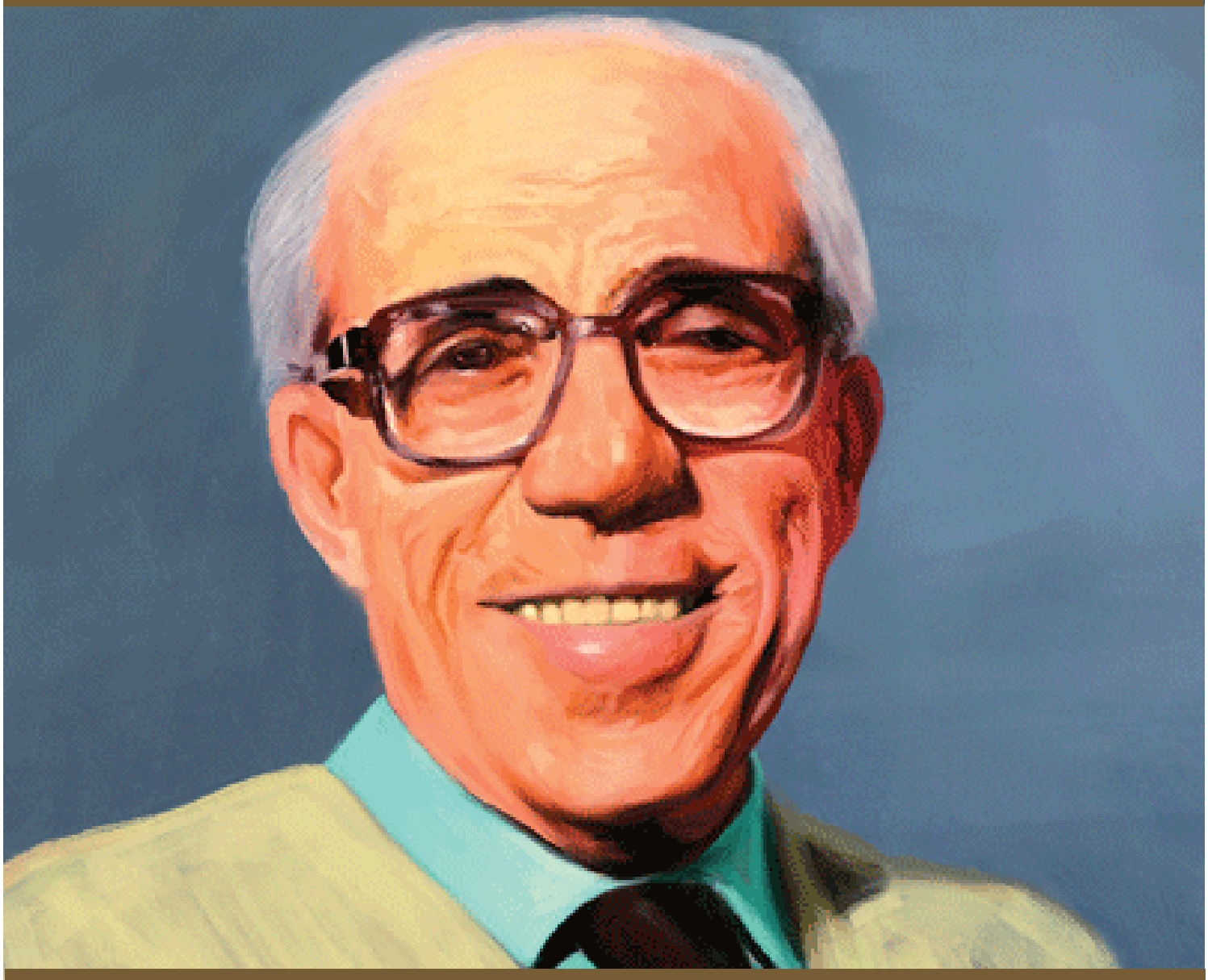

عبدالسلام شرماط
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2022
All rights reserved © 2022

الاتجاه التأليفي عند حاييم الزعفراني[1]

1 - مقتطف من كتاب يهود المغرب في كتابات حاييم الزعفراني، د.عبد السلام شرماط، الصادر عن مؤسسة مؤمنون بلاحدود للنشر والتوزيع.

ملخص:

يتضمن هذا البحث أهم أعمال حاييم الزّعفراني التي كلّف نفسه فيها عناء البحث والكتابة، وقد رمنا الوقوف عندها، قصد التعمّق أكثر في ما أنجزه الرجل أولًا، والاطلاع على ما تختزنه الذاكرة اليهودية في الغرب الإسلامي، ومنها يهود المغرب ثانيا؛ والذين أقاموا فيه زهاء ألفي سنة، وتركوا تراثاً فكرياً يمتزج فيه التاريخي بالاجتماعي والديني بالأدبي والفلسفي، الأمر الذي حفز حاييم الزّعفراني على تحمّل هذه المهمة، فكلّف نفسه أمر البحث فيها في إطار زمني حصره بين خمسة قرون، ثم تجاوزه ليقدم دراسات جديدة حتى مراحل أخيرة من حياته، وهو حريصٌ على خط المشترك في المجتمعين اليهودي والإسلامي، من خلال التعايش الذي وجدت له الطائفة اليهودية حضوراً ملموساً في بلاد المغرب، بعيداً عن الاضطهاد، وهي تعيش حالة من الأمن والسلم وقد عقدت علاقات تجارية، وأقامت مع المسلمين جنباً إلى جنب.

تقديم:

جاءت كتابات حاييم الزعفراني غزيرة، جمعت بين التأليف والنشر واللقاءات العلمية، فإنّنا اكتفينا بتقديم قراءة تحليلية لبعض مؤلفاته التي رتّبناها وفق تعاقبها الزّمني في الصدور، وتأتي هذه المؤلفات كالآتي:

1- التربية اليهودية في أرض الإسلام، 1969

2- يهود المغرب؛ حياة اجتماعية، اقتصادية ودينية، 1972

3- الشعر اليهودي في الغرب الإسلامي، 1977

4- ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، 1983

5- القبالة؛ تصوف وسحر، 1986

6- يهود الأندلس والمغرب، 1996

1- التربية اليهودية في أرض الإسلام، 1969

pedagogie juive en terre d'islam, paris, librairie d'amerique et d'orient, maison neuve, 1969

تتميز العائلة اليهودية المغربية بالنظام الأبوي؛ فالأب هو الشخص الرئيس في العائلة يملك كل السلطة، ومن واجبه تربية أولاده؛ فقد عني اليهود بتعليم أبنائهم منذ صغر سنهم، إذ يبدأ الطفل تعليمه، عادة، في سن الثالثة في الظروف العادية إلى سن الرشد الديني ثلاثة عشر عاما، حيث يتعلم الطفل في الحيدر وتلمود توراه حروف الكتابة والقراءة، ثم حفظ نصوص من التوراة والصلوات المتعددة. أما في اليشفا أو التعليم العالي، فإن التلميذ يتعمق في دراسة التلمود والتوراة، ويقرأ الكتابات الأخرى، مثل المدراشيم والزوهار والتفاسير المتعددة، وما أن يبلغ التلميذ العقد الثاني من عمره حتى يغادر التدريس، ليلتحق بالأعمال المهنية التي كان يزاولها والده، بالرغم من إجبارية استمرارية التعليم اليهودي الحديث في رابطة الاتحاد الإسرائيلي التي كانت هدفاً لهجوم الأحبار واليهود التقليديين.

يُعدّ كتاب «**التربية اليهودية في أرض الإسلام**» الذي ألفه حاييم الزعفراني، والصادر باللغة الفرنسية عام 1969 من بين مؤلفات الباحث الأولى، وهو كتاب يدور موضوعه حول أسس التعليم اليهودي، والتي تناولها الزعفراني في خمسة فصول.

قدّم الباحث الفصل الأول في صيغة مقدّمة عامة تحت عنوان: أسس التعليم التقليدي؛ التوراة والتلمود، تناول فيه بالبحث تربية أطفال اليهود وتعليمهم، مبرزاً أن التعليم يبدأ من السنة الخامسة، كما أن فترة التعلم تمر عبر ثلاث مراحل مهمّة، هي:

- مرحلة المقرا/التوراة؛

- مرحلة المشنا؛

- مرحلة الجمارا.

أما المرحلة الأولى؛ أي مرحلة المقرا، فتنحصر ما بين السنة السادسة والعاشرة من العمر، بينما يصل من الطلاب إلى مرحلة المشنا كلّ من تتراوح أعمارهم ما بين السنة العاشرة والخامسة عشرة، وفيها يتلقون التوراة الشفوية. فيما تبقى المرحلة الأخيرة؛ أي مرحلة الجمارا، مرحلة تعمق في دراسة ما سبق من النصوص التوراتية.

وعزز الباحث هذا الفصل بعرض بعض المناهج التربوية المثالية الخاصة بالتدريس، ومنها ما عرضه الربي يهودا بن الربي صمويل بن عباس[1].

ووسم المؤلف الفصل الثاني بالمدرسة اليهودية التقليدية في المغرب، وفيه قدّم جرداً تاريخياً ليهود المغرب، موضحاً كيف عاش اليهود في عهد إدريس الأول وإدريس الثاني، وفي عهد المرينيين والمرابطين والسعديين، كما أرفق هذا الجرد بوثائق تربوية لبعض الربيين المغاربة، ومنهم:

- **الربي صول دنان**: ينحدر هذا الربي من عائلة عريقة، استقرت بفاس بعد تهجير 1492، تكوّن تكويناً يهودياً على يد ربيين مشاهير، وعيّن قاضياً بمراكش ثم الصويرة.

وتتضمن الوثيقة التي قدمها المؤلف شهادة واضحة عما قدمه صول دنان عن النظام التربوي والتعليمي في المسيد، وهي كالآتي:

ينقسم التلاميذ في قاعة الدرس إلى مستويات مختلفة، يجلس المعلم في الوسط. يبدأ القسم التمهيدي بقراءة الحروف الأبجدية، ثم الصوائت، ثم تركيب الحروف والنقط، وبعد سنتين أو ثلاث سنوات، يستطيع التلميذ قراءة نص كامل بناء على الطرائق البيداغوجية المستعملة في الحيدر[2]، ثم ينتقل إلى القسم الثاني

1 - عاش في القرن 13 بالغرب الإسلامي، هاجر إلى المشرق، واشتهر فيه باسم أبي البقاء بن يحيى بن العباس المغربي، عالم وشاعر، وصديق ليهودا هاليفي.

2 - haïm zaafrani, pédagogie juive en terre d'islam, p.32

المسمى بالعبران، نسبة إلى القراءة العبرية، ويبقى فيه مدة سنة كاملة، وفي المستوى الموالي، يبدأ التلميذ بدراسة التآميم؛ أي علامات التنقيط، ثم يهتم التلميذ في المرحلة الموالية بتفسير النصوص، يقرأ المعلم قطعة بالعبرية، ويرددها التلميذ، يترجمها المعلم إلى العربية، ثم يردّدها التلميذ دون فهم المعنى الصحيح للنصوص، ويستمر ذلك مدة عام أو عامين، وبعدها يشرع التلميذ في دراسة التلمود.

وفي جانب آخر من هذا الفصل، تحدث حاييم الزعفراني عن التعليم اليهودي التقليدي عند يهود تدغة بالأطلس الكبير[3] وعند الجماعات الناطقة بالأمازيغية، معرفاً ببعض الربيين الذين عاشوا هناك، ومنهم الربي ميمون مالكا[4] وموسى مالكا[5] وأبراهام مويال[6] والربي سمون ربيبو[7]. فما أن يبدأ الطفل في التعلم من السنة الخامسة من عمره، ينشغل والده -يشير الباحث- بشيئين اثنين هما: تعليمه التوراة، وإيجاد العروس المناسبة له[8].

فالطفل اليهودي يمرّ في التربية عبر مرحلتين؛ الأولى في البيت وفيه يتلقى عناصر التربية الأسرية الأساسية، ثم ينتقل في مرحلته الثانية إلى المدرسة، ليشرع في تعلم الأبجدية بحضوره إلى المدرسة يومياً ما عدا الأيام الرسمية، وزوال يوم الجمعة وصباح السبت. أما البنت، فلا تذهب إلى المدرسة، اللهم بعض الاستثناءات كما في طنجة وتطوان، حيث كانت البنت تتلقّى تعليماً يسمح لها بقراءة نص عبري.

وتعدّ مرحلة اليشيفا مرحلة تعليم عالٍ، يصل إليها كلّ من أراد التعمق في المعارف التي تلقّاها في الحيدر، ليحمل المتعلم في ما بعد لقب تلميذ حاخام.

ويشير الباحث في الفصل الثالث من كتابه، والذي عنونه بزمن التحولات والإصلاحات، إلى التحولات التي أجرتها رابطة الاتحاد الإسرائيلي (aiu) على التعليم اليهودي التقليدي، فقد أدخلت هذه الرابطة طرائق ومناهج تربوية حديثة، في مدارسها التي فتحت أبوابها في تطوان عام 1862، وفي طنجة عام 1869، والعرائش عام 1873، ثم فاس عام 1881، والصويرة عام 1888. وخص المؤلف الفصل الرابع للتعريف بربيين مغربيين؛ تحت عنوان سيرتان ذاتيتان، وهما:

- الربي يوسف بنئيم: ولد عام 1882، علمه والده إسحاق بنئيم، ثم أرسله في الرابعة من عمره إلى الحيدر، ليحرص على تعليمه تعليماً دينياً، تزوج ثم تابع دراسته مع صديقه الربي حاييم بن متاتيا سرورو.

3 - تقع تدغة في جبال الأطلس، استقر فيها اليهود عبر ثلاثة أماكن هي: أسفلو 600 نسمة، تنغير 400 نسمة، تاوريرت 200 نسمة.

4 - من مواليد أسفلو بتدغة، انتقل إلى تنغير وهناك تعلم على يد جده يحيى مالكا، امتهن التجارة، ثم اشتغل معلما للعبرية بالريساني في تافيلالت.

5 - تلقى تكوينا تقليديا في تنغير، ثم انتقل إلى الرباط.

6 - تاجر كبير من تزنيت، يتكلم العبرية والأمازيغية، مترجم النصوص العبرية المقدسة إلى اليهودية العربية والأمازيغية.

7 - من مواليد إفران بالأطلس المتوسط، انتقل إلى الصويرة ثم الدار البيضاء.

8 - pédagogie juive en terre d’islam, p.36

- الربي يوسف مساس: ولد بمكناس في 12 نيسان5652/ 9 أبريل 1892[9]، اشتغل والده الربي حاييم مساس في الطباعة، وزاول بعض الحرف الأخرى، كما كان مهتمّاً بدراسة التوراة، عينته طائفة تلمسان لمزاولة مهام ربّي، عاد إلى مدينته الأصلية مكناس عام 1940

وفي الفصل الخامس من الكتاب، عرض الباحث بعض النصوص اليهودية العربية، والتي تخص طائفة مراكش وطائفة تنغير.

لقد عني الباحث في هذا الكتاب بوصف مراحل التربية التي يتلقّاها الطفل اليهودي في الأسرة أولا، وفي المدرسة ثانيا، كما وقف عند بعض الربيين الذين ساهموا في إرساء أسس التعليم التقليدي اليهودي، سواء في الحيدر أو اليشفا.

ويبدو أنّ غرض الأستاذ الزّعفراني من هذا الكتاب هو التعريف بمبادئ التعليم اليهودي وطرائقه التربوية، خصوصا في منطقة تدغة بالأطلس وعند الجماعات الناطقة بالأمازيغية. يقول الأستاذ أحمد شحلان معلّقاً على هذا الكتاب: «التربية والتعليم اليهوديين في بلاد الإسلام 1969 مؤلف أبان فيه عن أصول التربية والتعليم اليهوديين منذ القدم وإلى عهده هو[10]، مقارناً في ذلك بين المناهج التعليمية في الأندلس والمغرب، وبينها في الحيدر واليشفا من جهة أخرى، دون أن ينسى كل التقاليد والأعراف التي كانت ترافق العملية التربوية من المهد إلى اللحد في المجتمعين اليهودي والإسلامي»[11].

وإذا كانت التربية تعني -حسب تعريف الزعفراني- تكييف الفرد داخل الجماعة قصد التشبع بنفس الروح التي تهدف إلى تكوين شعب متميّز، فإن التعليم يسعى إلى إشراك المتعلم في العبادة واكتسابه للتقاليد والتعاليم، حتى يصبح قادراً وحريصاً على القيام بالواجبات التي تأمر بها التوراة. وإذا كانت المناهج التربوية التقليدية تحرص على تعزيز وترسيخ ما سلف ذكره في ذهن المتعلم، فإن مدارس رابطة الاتحاد الإسرائيلي سعت إلى نشر مناهج تعليمية حديثة تضمنت تعليم اللغة الفرنسية، ونشر الفكر العلماني، الأمر الذي أثار جدلاً في الأوساط الربية اليهودية المحافظة؛ فبعد تأسيس أول مدرسة بتطوان عام 1862م، حرص مدرسو الرابطة على إكساب تلاميذهم مبادئ اللغة الفرنسية ومبادئ الرياضيات، وتعليمهم بعض المهن اليدوية، غير أن هذه الأنشطة لم تحظ بقبول قادة الطوائف اليهودية، ولا سيما في طنجة والصويرة، والذين فضلوا إرسال أبنائهم إلى المؤسسات السفرادية والإنجليزية.

وإذا كان بعض الدارسين قد عنوا في دراساتهم بالتعليم اليهودي، فإنهم لم يتناولوا ذلك بالشكل المرغوب فيه، إذ اكتفوا بوصف المؤسسات التعليمية اليهودية القديمة منها أو الحديثة، وبوصف الطرائق التعليمية في

9 - 5652 تاريخ عبري يختلف عن التاريخ الميلادي، وتعادل 5652 كتاريخ عبري 1892 كتاريخ ميلادي.

10 - يعود الضمير هو على حاييم الزعفراني.

11 - حاييم الزعفراني، يهود الأندلس والمغرب، ترجمة أحمد شحلان، مطبعة النجاح الجديدة، الجزء الأول، ص9

الحيدر أو اليشفا؛ فقد استعرض paul valence طريقة إلقاء الدرس في اليشفا بقوله: «يقرأ المعلم نصّاً من نصوص التلمود، ثم يقرأ تعليقاً عليه، ثم يقف ويطرح أسئلة، وبعدها يتساءل التلاميذ في ما بينهم، وعندما يستعصي الجواب، يجيب الأستاذ، ويستمر في أسئلة أخرى»[12].

واكتفى lerner.d في دراسته le talmud torah de meknes بوصف المؤسسة التربوية تلمود توراه بمكناس التي يتعلم فيها أبناء اليهود تعليماً دينياً، وأضاف أن هذه المؤسسة تتوفر على أربعة وعشرين فصلاً، وتضم حوالي ألف وخمسمئة تلميذ، كما أوضح أن الدراسة تبدأ في هذه المؤسسة التعليمية بقراءة العبرية في الطفولة، ثم قراءة التلمود[13].

أما semachy.d، فتحدث عن دور مدارس الاتحاد الإسرائيلي التي أسهمت في إصلاح المنظومة التعليمية اليهودية، يقول: «إن أول مدرسة للرابطة تأسست بتطوان في 1862؛ وذلك لمساعدة يهود المنطقة على التعلم، ثم توالى تأسيس المدارس بالمدن الأخرى... ولم تقف عند حد التعليم، بل كانت تقدم مساعدات مادية لأبناء الفقراء (الأدوات المدرسية، الملابس) كما كانت توجههم نحو تعلم الحرف»[14].

في ضوء ما تقدم، يمكن القول إنّ حاييم الزّعفراني لم يحصر التربية في التعليم المدرسي فقط، بل أوضح أن للعائلة دوراً فيها كذلك، يقول: «ويتكون الطفل في العائلة على الأقل بمقدار ما يتعلم ويتربّى في المدرسة، ويأتي تأثير المعلم لإتمام التربية التي بدأت وتتابعت في الوسط العائلي، وتنحصر مهمته في تعليمه قراءة التوراة، وهو يتلقى تربيته الأولية في البيت، والأم هي التي تلقنه الفضائل الأولية للإحسان واحترام مال الآخر وحب الأرض المقدسة، ويكتسب الطفل معرفة جيدة بواجبات العبادات عن طريق القدوة بالآباء وممارستهم اليومية»[15].

لقد حرص اليهود على تعليم أبنائهم على اعتبار أنّ التعليم هو أوّل واجب على الفرد أن يتقيّد به بغية اكتساب المعارف النافعة؛ فالمسؤولية الأولى التي تتحملها الطائفة هي توفير هذه المعرفة وإعداد العدة اللازمة لتشجيع هذا التعليم.

12 - paul valence, la yecheba, bepm, n 163, janv, fev, 1939, p.7

13 - lerner, d, le talmud torah de meknès, bepm, n 138, mars 1935, p.104

14 - semachy.d, l'alliance israelite universelle, bepm, n83, octobre, 1927, france. p.8

15 - حاييم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، ترجمة أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1986، ص5

2- يهود المغرب؛ حياة اجتماعية واقتصادية ودينية

les juifs du maroc, vie sociale, economique et religieuse, etude de taquanot et responsa, paris, 1972

انشغل علماء الشريعة اليهود منذ القرون الأربعة الأخيرة بقضايا العقيدة اليهودية والمصادر التي تناولتها، فقد كانوا ملزمين بالإجابة عن كلّ ما يمس مجالات حياة اليهود العامة منها والخاصة، سواء ما تعلق منها بالحياة العائلية أو قانون الأحوال الشخصية أو البنى الاجتماعية والاقتصادية.

وفي هذا الاتجاه، ألف حاييم الزّعفراني كتابه الموسوم بـ: «يهود المغرب؛ حياة اجتماعية واقتصادية ودينية»، حيث تناول فيه الفتاوى والنوازل التي تعلقت بحياة يهود المغرب العامة والخاصة.

ضمّ الزّعفراني دراسته ثلاثة فصول؛ تناول في الأول منها تاريخ التشريع الربي وتطوره، انطلاقا من مصادر تشريعية، كانت هي المرجع الرئيس للمؤلفين المغاربة، كما حدد تاريخ القانون الربي في ثلاث مراحل، تأتي كالآتي:

- المرحلة الكؤونية التي انتهت مع مؤلفات إسحاق الفاسي.

- مرحلة التطور والتأليف التي بدأت مع ظهور «مشنا توراه» لموسى بن ميمون، وانتهت هذه المرحلة مع فتاوى أشير بن يحئيل.

- عرف الأدب الربي خلال هذه المرحلة ازدهاراً ونشاطاً كبيريْن في مجال الشريعة مع ظهور كتابات تشريعية مهمة، مثل «بت يوسف» و«شولحان عروخ».

وقسم الكاتب أدب الشريعة إلى قسمين هما:

- قسم تضمن المبادئ التي تعلق فيها الإنسان بخالقه، وقد جمعت في غالب الأحيان في «طور» وحواشي يوسف كارو، تحت عنوان «أورا حاييم» (نور الحياة).

- ويخص القسم الثاني المبادئ التي تنظم علاقات الإنسان مع قريبه؛ فهي التي تكون مادة القانون المدني والجزائي.

ومن جانب آخر، تناول الدارس أدب الأحكام المغربي وعلاقته بالشريعة (الهلاخا) بصفة عامة، مبرزاً المبادئ الكبرى التي بنى عليها المشرّعون المغاربة قراراتهم. ووقع اختيار الكاتب في إطار حديثه عن الشريعة كنوع كتابي ينشده العالم اليهودي المغربي، خمسة مؤلفات تشريعية، ألفها يهود مغاربة، وهي:

- **«سفر هاتقنوت» لأبراهام انقاوة**

- **«مشبط وصداقة بيعقوب» ليعقوب أبنسور**

- **«برت أبوت» لإبراهام بن يهودا قورياط**

- **«أوريم توميم» لشؤول صرورو**

فقد شملت هذه المؤلفات مجموعة من التقانوت أو النوازل، ومجموعات من «الرسبونسا» أو الفتاوى، ومنتخبات من الأحكام القضائية ومعجم القضايا الشرعية. وضمن إلى جانب ذلك، جدولاً إحصائياً لمصادر ومراجع ربية شكلت المصادر الرئيسة في أدب الأحكام المغربي. أما عن الاتجاهات التشريعية المهمينة، فقد وقف الكاتب عند مذهبين اثنين هيمنا على التشريع الربي المغربي خلال القرون الخمسة الأخيرة، وهذا المذهبان هما:

- **مذهب أشير بن يحئيل**، وهو مذهب ساد في فترة تعدّ نسبياً قصيرة، حيث امتدت خلال القرن السادس عشر، منذ أن أقام مهجرو الأندلس في المغرب، وحتى الظهور الأول لكتاب «بت يوسف» و«شولحان عاروخ» لدى اليهودية المغربية. يقول حاييم الزعفراني: «وتعد كتابات الرئيس[16] من تراث المدرسة الأندلسية التي ينتمي إليها أحبار قشتالة ومن كان بعدهم بعد التهجير، ونسجت كتاباته ومؤلفات ‹حكماء› الأندلس على العموم، وكانت قد انتشرت في أوساط المهجرين كما تدل على ذلك كثرة المخطوطات التي لا تزال بعض العائلات تحتفظ بها في مكتباتها على غرار فكر النخبة المثقفة القشتالية الأصول»[17].

- **مذهب يوسف كارو**؛ بعد مرور قرن من الزمن، ظهر فكر يوسف كارو الذي انتشر بسرعة في الأوساط الربية المغربية، البلدية منها والمهجرة؛ يقول حاييم الزّعفراني: «وكان لعمل يوسف كارو وشروحه نفوذٌ كبير وأثرٌ عميق ما زالت آثاره ممتدة حتى الآن على تعاليم التشريع في مختلف المدارس الكبرى اليهودية، وفي فقه المحاكم الربية وفي الكتابات التشريعية التي تفرعت عن هذه»[18].

16 - يقصد بالرئيس (هروش) أشير بن يحئيل.

17 - حاييم الزعفراني، «يهود الأندلس والمغرب»، ترجمة أحمد شحلان، مطبعة النجاح الجديدة، الجزء الأول، ص 268

18 - حاييم الزعفراني، المرجع نفسه، ص269

وبذلك يكون الأحبار المغاربة قد تبنّوا مؤلفات يوسف كارو من خلال مؤلفيه؛ «بت يوسف» و«شولحان عاروخ»، فاكتسب بذلك شهرة عرف من خلالها بـ «موران»؛ أي معلّمنا، تمييزاً عن الربي موسى إسرليس (1520-1572) والمعروف بـ «مورام»؛ أي معلّمهم.

وفي الفصل الثاني من الكتاب، وقف الزّعفراني عند مجالات القانون الاجتماعي والاقتصادي، ليتحدث عن قانون الأحوال الشخصية (الخطوبة - الزواج - تعدد الزوجات - تفكك العلاقة الزوجية بسبب الطلاق أو الموت - قانون العكونة...). كما وقف عند نظام الطائفة وبناها الاجتماعية ومؤسساتها المكونة من مجلس الطائفة ومعبد وممتلكات وتعليم وضرائب، وكذلك قانون الممتلكات والواجبات.

وخصّص الفصل الثالث من الكتاب لجدول تضمن مؤلفات لأدباء مغاربة ما بين القرن الخامس عشر وبداية القرن العشرين؛ المخطوط منها والمطبوع. أما المخطوطات، فقدم منها حوالي سبعة وخمسين مخطوطاً قانونياً وثماني عشرة فتوى، وكلّها متوفرة في مكتبة «يوسف بنئيم» و«مالكي ربانان» كما يتوفر معهد بن صفي على ثلاثة وعشرين مخطوطا، وفي المكتبة الوطنية بالقدس خمسة مخطوطات، بينما قدم من المطبوعات سبعة وتسعين مطبوعاً، ستة باليهودية العربية، وخمسة في الشعر التعليمي، ثمانية وثلاثون مؤلفاً قانونياً، وثمانٌ وأربعون فتوى.

لقد شكّل هذا الكتاب وثيقة تشريعية شملت مصادر الشريعة اليهودية والمؤلفات التي كانت المرجع الرئيس للمؤلفين المغاربة، كما عرض في كتابه أثر التجارة والاقتصاد على تغير البنى الاجتماعية بسبب ما يحدث من اضطرابات تؤثر على الناس والأموال، وبالإضافة إلى هذا أشار إلى بعض الفتاوى والأحكام والنوازل التي تبين علاقة يهود المغرب بإخوانهم في فلسطين من جهة، وعلاقتهم بالمسلمين من جهة أخرى.

يقول حاييم الزعفراني: «لقد سمحت الدراسة المعمقة للنصوص برصد علاقات أدبيات التشريعات المغربية واتصالها مع مختلف تيارات الهلاخا، وسمحت أيضا بالكشف عن الاتجاهات المهيمنة وثوابت التشريع الربي المغربي خلال مسيرته، وساعدت على تحديد مفاهيم المؤلفين والمبادئ التي يصدرون بناء عليها قراراتهم القضائية»[19].

19 - حاييم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، ترجمة أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم، ص175

3- الشعر اليهودي في الغرب الإسلامي

poesie juive en occident musulman, paris, 1977

يعدّ الشعر اليهودي سلسلة من الرسائل المنقولة من مدرسة إلى أخرى، تلقاها الشعراء اليهود المغاربة عبر العودة إلى المدارس الفلسطينية والعصر الذهبي الأندلسي، يقول حاييم الزعفراني: «إن العصر الذهبي للفكر الأندلسي المغاربي والمشرقي عامة، أصبح تراث اليهودية العام أشكناز وسفراد»[20]. والشعر اليهودي نمطٌ تعبيري من أكثر الأنماط خصوبة؛ لأنه تعبير عن الفكر الخالص ودفق للروح وانبثاق لإحساس فياض يهتز لأبسط العواطف، وكأنه كتاب مفتوح تقرأ فيه الأفراح والآلام؛ يغني التفاؤل في ساعات السعادة، ويبكي التعاسة في ساعات الألم، ويشجي جروح الماضي ومرارة الحاضر، وهو إبداع لا يكاد يخرج في جوهره عن الدين؛ فالشاعر يتلقى الإلهام عن إيمان حارّ ومتأجّج؛ لأن الشعر هو صلاة متواصلة، سواء كان ابتهالاً (باقشوت) أو توسّلاً (تاحنوت) أو إرشاداً ونصيحة، كما أن اليهودي المغربي لا يعرف أحلام الحياة في الفضاءات الواسعة، بل انشغالاته طقوسية وروحية، وتحتلّ مكانة خاصة في شعره.

وتمتد جذور الشعر العبري إلى إبداعات شعرية قديمة، مثل المزامير، والمراثي، بالإضافة إلى الشعر النبوي؛ فالشاعر غالباً ما يستمد موضوعاته من أحداث ذكرتها التوراة، بينما يبحث عن الجوانب الفنية للشعر كالعروض في المزامير، خصوصاً تلك التي تعتمد على التطريز الأبجدي؛ ذلك أن الشعر التوراتي يعتمد في تقنياته على اللازمة والتوازي (الجمع بين الشكل والمضمون). كما أن الشعر اليهودي عامة، والمغربي خاصة، لا يبتعد عن أدب التوراة، فعلى الرغم من سقوط الدولة العبرية في عهد الرومان، فإن الحياة الفكرية والروحية لليهود لم تتأثر، اللهم في بعض فترات الجمود الشعري خلال القرن الثالث قبل الميلاد؛ فقد أعاد النظامون «البايتنيم» «paytanim»[21] مثل: «يوسي بن يوسي»، و«يناي» للشعر شعلته وبعثوه من جديد. والبيوط «النظم» هو انعكاس لتصور ربّي للعالم وللفكر اليهودي... ويمثل في بعض الأحيان العقلية الشعبية... البيوط إذن هو مرآة تعكس الوجود اليهودي[22].

ومن أهم أنواع شعر البيوط، الشعر الملحمي، الذي ظهر مع الشاعر «يوسي بن يوسي»، ويسمى هذا النوع من الشعر «عبوده - عبودوت»، حيث يصف فيه الشاعر مجموع الطقوس الإلهية ليوم الكفارة (yom. hakippurim)، إذ يبدأ بقصة موجزة عن خلق العالم، ثم خلق الإنسان، بدءاً من ولادة الشعب الإسرائيلي.

20 - zaafrani(h), poesie juive en occident musulman; paris; france, 1977, p.9

21 - البايطنيم هم شعراء البيوط الفلسطيني، وقد اختلف الدارسون في تحديد الفترة التي ظهروا فيها؛ فمنهم من أرجع ذلك إلى القرن 8 للميلاد، فيما أرجع آخرون ذلك إلى القرن 5، وذكر الكاتب أن يوسي بن يوسي عاش في القرن الرابع (انظر ص 58)

22 - zaafrani(h), poesie juive en occident musulman; paris, 1977, p.52

وفيما بعد أصبح هذا النوع من الشعر نموذجاً يقلده شعراء فلسطينيون وأندلسيون، إذ إن شعر البيوط يستمد بلاغته من المدراش والتلمود؛ فالشاعر حين يرغب في رثاء الماضي (qinah)، فإنه يميل إلى توظيف أساليب مستمدة من المدراش. وتتجلى الوظيفة الطقوسية لشعر البيوط في أربعة مستويات شعرية، هي:

أ- الشعر النبوي، وفيه تكون الكلمة موجهة من الله إلى النبي المكلّف بتبليغ الرسالة إلى الناس؛

ب- الشعر الطقوسي، وهو عبارة عن صلاة يتضرع بها الإنسان إلى الله؛

ت- الشعر المادي، وفيه يتوجّه الشاعر بالحديث إلى قريبه في حدود العالم المحسوس؛

ث- الشعر الغنائي، وفيه يعبر الشاعر عن وجدانه وأحاسيسه بأفراحها وأحزانها.

وإذا كانت المدرسة الأندلسية المرجع الرئيس لشعراء المغرب الذين انحدروا من طائفة الميكورشيم المطرودة من قشتالة عام 1492م، فإن الشعر الأندلسي شكل صورة واضحة للبيوط الفلسطيني؛ فشعراء الأندلس الأوائل تكوّنوا في مدرسة البيوط الفلسطيني، والعلة في ذلك نموذج المرثية (qerobah) الذي ألفه «دوناش بن لبراط»، وهو شاعر عاش في القرن العاشر، إذ ولد في فاس، وينحدر أصلا من عائلة بغدادية، وتلقى تكويناً يهودياً وعربياً.

لقد انتقل البيوط إلى الأندلس، وبدأ يدرّس في المدارس العليا (اليشفوت)، لذلك نجد نظّام الأندلس ينظمون على طريقة أساتذتهم في المشرق، غير أنهم طوروا طرائق نظمهم تدريجيا، فخرج الشعر من دائرة الطقوس والشعائر، وتحول إلى أداة جدالية أدت إلى ظهور مدرستين لسانيتين متنافستين؛ الأولى يتزعمها «دوناش بن لبراط»، والثانية يقودها «مناحيم بن سروق»[23].

ولأنّ الشعر العبري في الأندلس نشأ وتطور في محيط ثقافي عربي إسلامي، فإنّ ذلك قد ساعد على امتزاج العبرية بالعربية في مجال اللغة، فاستفاد الشعراء اليهود من البلاغة العربية ومن تقنيات النظم الشعري العربي، بل استفادوا من موضوعات شعرية عربية، ونظموا على غرارها في الصيد والحرب، وكان من رواد هذا اللون من الشعر «يهودا الحريزي»[24]، كما تكسبوا بأشعارهم على طريقة الشعراء العرب القدامى، غير أن شعر الحب والخمرة والطبيعة لم يحتل مكانة خاصة في الشعر اليهودي.

لقد ظلت علاقة شعراء المغرب بالشرق والغرب الإسلاميين متواصلة خلال فترات نحددها في الآتي:

23 - مناحيم بن سروق، شاعر يهودي عاش في قرطبة خلال القرن العاشر.

24 - يهودا الحريزي شاعر ولد في الأندلس منتصف القرن الثاني عشر، ترجم المقامات العربية إلى العبرية.

أ- الفترة التي امتدت من القرن السادس إلى القرن الحادي عشر الميلاديين، وهي فترة كانت فيها علاقة المغرب باليشفوت الفلسطينية وطيدة؛

ب- فترة العصر الذهبي الأندلسي المغاربي، وهي فترة تعززت فيها العلاقة بين إسبانيا والمغرب على مستوى التبادل الثقافي، حيث كان التواصل بين أدباء فاس وأدباء قرطبة، كما كانت العلاقات الروحية والتاريخية تتداخل بين الطوائف اليهودية، وكان الأدباء اليهود المغاربة أساتذة اليهودية بالأندلس، كما أن النحاة والشعراء الذين أسسوا المدرسة الأندلسية هم في الأصل مغاربة، ومنهم «يهودا بن قريش»[25] و«دوناش بن لبراط»، و«يهودا حيوج»[26] ومنهم أدباء القرن العاشر الذين ساهموا في تطوير الشعر العبري، ومنهم «دوناش بن تميم»[27] و«يعقوب بن دوناش».

ت- فترة الطرد البرتغالي والإسباني لليهود ما بين 1492-1497م، وخلالها بدأ اليهود يتوافدون تدريجياً على أرض المغرب، وبدأت العائلات المهاجرة تستقر في أماكن مختلفة، وهي تشكل مجموعات إثنية ينتمي إليها أدباء وشعراء كثيرون، ومنهم النحوي «ابن جناح» الذي كان يستظهر النصوص الشعرية أمام أستاذه «ابن مرسول».

ويجدر التنبيه إلى أنّ الهيمنة الدينية حاضرة في الشعر العبري، فإذا كانت الانشغالات الدينية بارزة في بعض الأشكال الفكرية الأخرى، فإن الشعائر الدينية احتلت مكانة مهمة في الشعر الفلسطيني والأندلسي، وبالتالي أصبح الشعر اليهودي المغربي مرآة تعكس صلاة مطولة تتحول فيما بعد إلى بكاء وشعور بالحزن والأسى تارة، والصلاة وتمجيد الإله بأناشيد وتراتيل تارة أخرى.

وفي هذا الصدد، يمكن التعريف ببعض المختارات التي شكلت أرضية نقدية تنهض على تفاسير وتعاليق لأشعار برز فيها شعراء مغاربة، ومن ذلك:

- «تيهيلا داود» (ابتهالات داود)

تتضمن هذه المختارة كما بين صاحبها «دافيد حاسين»[28]، ثلاثة فروع موازية لثلاثة أركان أساسية هي: «دراسة التوراة - خدمة الإله - العطف على الآخر»، وتنقسم هذه الفروع إلى أربعة عشر عنواناً، وهو عدد مناسب لعدد الجمل التي تمثل الحروف التي يتركب منها اسم داود.

25 - نحوي عاش في القرن التاسع.

26 - هو أبو زكريا يحيى بن داود الفاسي الذي درس النحو لليهودي القرطبي أبو الوليد مروان بن جناح.

27 - فيلسوف ونحوي وطبيب.

28 - شاعر مغربي (1722-1792)

- «شير حداش» (شعر حديث)

تُعدّ هذه المختارة خطاباً تاريخياً وبلاغياً، ألفها «رفاييل موسى الباز»[29]، وتتضمن محاور شعرية كبرى أهمها محور المناحات.

- الشعر التوراتي

مختارة تتضمن مقدمة حررها «يشوع سمون حاييم عباديا»[30]، وهي عبارة عن خطوط عريضة لتاريخ الشعر العبري.

- كتاب لغة الحكماء

ألفه «إسحاق هاكوهن»[31] وركز فيه على «الميليصاه»؛ البلاغة وفصاحة الكلام، وقد بين أن نسيج الصناعة اللغوية التي تطرز أبياتا من الشعر، هو الذي يساعد على تكوين الشاعر.

- كف نقي

ألفه «خليفة بن مالكا»[32]، وهو عبارة عن مجموعة من التفاسير والتعاليق حول بعض المواضيع الشعرية من مراثي وابتهالات.

ويعدّ -كتاب «البيوط» للشاعر الفلسطيني «يناي»- إضافة إلى ما تقدم- مصدراً علمياً مهمّاً عند أدباء المدرسة الفلسطينية، لكونه استمد مادته من التلمود والمدراش والهكدا، وسار على نهجه شعراء مغاربة استثمروا في أشعارهم «المدراش» (التفسير الديني) و«الهكدا» (القصة)؛ ومن هؤلاء الشعراء نذكر: «ابن خلفون»[33] و«دافيد حاسين»، و«موسى أبنسور»[34].

أما الشعر اليهودي القبالي، فقد تمركز في المناطق الكبرى من بلاد المغرب، مثل فاس ومكناس وسلا ومراكش، وخصوصاً مناطق سوس والصحراء.

وتوجد مؤلفات يتمحور موضوعها حول القبالة في مكتبات إسرائيلية وبريطانية وأمريكية، ومنها:

29 - رفاييل موسى الباز (1823-1896)

30 - ربي عاش في صفرو (1872-1952) له كتاب «تراه بحاييم» طبع في جربة سنة 1952

31 - عاش في المغرب منذ 1753، عاصر يعقوب أبنسور.

32 - عاش في أكادير ما بين القرن 17 والقرن 18، رجل أعمال تلمودي وشاعر.

33 - شاعر مغربي عاش بين القرن العاشر والحادي عشر، عاصر التيارات الشعرية الجديدة إذ ذاك.

34 - شاعر مغربي عاش بين القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر.

- كتاب «سرور هامور seror ha mor» ألفه «أبراهام الصباغ»[35]، يشرح فيه القبالة التوراتي.

- قصائد «سمون لابي» وأهمها قصيدة «باريوحاي» التي ينشدها اليهود ليلة السبت.

- تعاليق «أبراهام بن موردخاي أزولاي»[36].

- كتابات سالم بوزاكلو القبالية.[37]

- كتابات «الهيكل المقدس»، ألفه موسى بن ميمون الباز[38]، طبع بأمستردام سنة 1633م

لقد ساهم الشعراء المغاربة في نمو الفكر القبالي وازدهاره، كما اهتموا بتعليم القبالة اللورياني نسبة إلى «إسحاق لوريا»[39].

ويعتبر النص المحرر في 1712م، من طرف «موسى أبنسور» في مقدمة ديوانه «الأصناج الرنانة» (silsele shama)، أول وثيقة تناولت علاقة الشعر بالقبالة؛ وهو كتاب يتضمن موضوعات تشيد بشعب اليهود، وأن العلاقة بينه وبين الله هي علاقة يدعمها كتاب التوراة المنزل على موسى. وتجدر الإشارة إلى أن هذا الكتاب هو الجزء الثاني من ثلاثية الدواوين الشعرية ليعقوب وموسى وشلوم أبنسور، وهم شعراء من عائلة قشتالية هاجرت إلى المغرب، واستقرت في فاس بعد التهجير الإسباني، ويتألف الكتاب من ثلاثة أبواب؛ عنوان الأول منها: ديباجات أدبية، والثاني: أبواب اللحن، والثالث: موسى يغني.

ومن جهة أخرى، نشير إلى أن الشعراء اليهود المغاربة وثقوا في محاولاتهم الشعرية لبعض العلوم اليهودية الأخرى، ومنها:

- **الشعر واللاهوت:** ينبثق الإبداع الشعري من إيمان الشاعر وانشغالاته اللاهوتية، ومن الشعراء الذين اهتموا بهذا اللون الشعري؛ «سعدية بن دنان»، و«دافيد حاسين»، و«يعقوب أبنسور».

- **الشعر والمجادلة:** أوقع الدفاع عن العقيدة الشاعر اليهودي في دائرة الجدل، سواء تعلق الأمر بالجدل الديني أو الإيديولوجي؛ فقد دار جدل حاد بين شعراء وفلاسفة كثيرين، منه الجدل الذي دار بين «بنحاس ليفي» و«تودوروس أبو العافية»، ثم الجدل الذي دار بين «نسيم جروندي» و«إسحاق بن سحيسح»؛ هذا

35 - مهاجر إسباني، حرر كتاب سرور هامور بفاس ما بين 1498 و1501

36 - ولد بفاس وتلقى تعليماً تقليدياً وقبالياً.

37 - عاش في القرن الثامن عشر.

38 - من تارودانت جنوب المغرب

39 - إسحاق لوريا الإشكنازي مؤسس مدرسة صفد (1543-1572)

بالإضافة إلى كتاب المجادلة الدينية الذي ألفه إسحاق بوليكار «العون الديني» (ezer hadat)، والذي جاء في شكل مقامة، شكل خمسة حوارات تعلقت بالجدل بين اليهودية والمسيحية من جهة، والأرثوذكسية من جهة أخرى؛ وهكذا فالكتابات الجدلية في المغرب عديدة ومتنوعة، وهي جدالات تضمنت في غالب الأحيان الدفاع عن العقيدة والقيم الروحية، ويكفي أن نذكر ما قدمه «يعقوب أبنسور» لمجادلة صديقه «الزاوي صمويل»، زد على ذلك المحاورة التي دارت بين ربيين مغربيين؛ هما «رفاييل بن سلمون أبنسور» و«موسى عطية».

- **الشعر التعليمي:** اهتم الشعراء اليهود بهذا النوع من الشعر، فنظموه في شكل سلاسل تضمنت منظومات تعليمية في القضاء وغيره ومنها؛ سلسلة «الأزهروت»، وهي منظومة تتألف من 613 وصية: مسوات (مبدأ)، كما وضع «سعدية الفيومي» مقاطع شعرية تتعلق بالقضاء، وفي ديوان «تيهيلاه داود» وضع «دافيد حاسين» 100رباعية، عنونها بـ «تيفيلاه داود» (صلاة داود)، كما قدم «يعقوب أبنسور» قصيدة تعليمية، عنونها بـ: «ميعارة سيديح همكبيلا»، حيث قدم فيها المواضيع الكبرى لمذهب الباطنية.

يحتوي الشعر اليهودي على نماذج عديدة من المحاولات الشعرية التي استمدت موضوعاتها من الحلم، على اعتبار أن حلم الحقيقة يأتي من الروح العقلي دون تدخل الحسّ المشترك خلافاً لحلم الكذب. ومن الشعراء المغاربة الذين مالوا إلى شعر الحلم (poesie orinique) نذكر الشاعرين «سعدية بن دنان» و«يعقوب أبنسور».

ويعد الجانب الشكلي في الإبداع الشعري اليهودي عنصراً أساسياً، ولأنّ الشعراء اليهود استفادوا من الموروث الشعري الأندلسي؛ فإنهم اطلعوا على الشعر العربي واستوعبوا قوانينه، ولا سيما تقنيات علم العروض. ويعد «يهودا الحريزي» واحدا من الشعراء اليهود الذين وظفوا الوزن الشعري العربي في أشعارهم، إضافة إلى فن الموشحات الذي نظم فيه الشعراء اليهود على غرار نظرائهم العرب في الأندلس. كما أجرى «سعدية بن دنان»[40] في كتابه «الضروري في اللغة العبرانية لعلم العروض»، مقارنة بين الأوزان العبرية وعلاقتها بالنماذج العربية، ودرس النظام الصواتي، باعتباره عنصراً أساسياً في علم العروض العربي والعبري؛ وفق التالي:

عدد الصوائت في اللغة العبرية عشرة، وتنقسم إلى مجموعتين:

- خمسة صوائت قوية، وهي حولم /« / ضم، شروق /u/ ضم، قماص /a/ فتح طويل، حريق /i/ كسر طويل، الصيري /e/ كسر ممال، وجميعها صوائت طويلة.

40 - شاعر ونحوي يهودي إسباني مغربي، عاش في القرن الخامس عشر الميلادي.

- خمسة ضعيفة، وهي: كبوص /u/ ضم قصير، بتاح /a/ فتح، السيجول /e/ كسر قصير، حيريق كتان /i/ كسر، سكون /« / الشيفا، وإن كان يعد في العروض نصف صائت.

أما القافية في الشعر العبري، فتأتي على ثلاثة أنواع هي:

- القافية القوية، وتسمى «حروز رابيي» وتتكون من صامتين يتوسطهما صائت مثل «sibbur»؛ أي عصفور.

- القافية الأكثر قوة، وتسمى«حروز ميسوباح»، وتتكون من ثلاثة صوامت وصائتين مثل: «debarim»؛ أي كلمات.

- القافية الضعيفة، وتسمى «حروز»، ويعتمد هذا النوع من القافية على صامت مسبوق بصائت، مثل: «shor- hamor»؛ ثور - حمار.

وقسّم «سعدية بن دنان» القصيدة في الشعر العبري إلى أربعة أنواع، هي:

- قصيدة كشور، وتتكون من قافية واحدة.

- قصيدة حسوي، وتنقسم إلى قطعتين، كل واحدة لها قافية معينة.

- قصيدة هاميحولاك، وتتعدد قوافيها

- قصيدة هاحروزي، وتكون فيها القافية موحدة.

أما بالنسبة إلى الأوزان في الشعر العبري، فهي لا تتعدى اثني عشر وزناً، خلافاً للأوزان العربية التي وصلت ستة عشر وزناً، وضع الخليل بن أحمد الفراهيدي خمسة عشر وزناً، ثم اضاف تلميذه الوزن السادس عشر، وهو المتدارك. وتأتي الأوزان العبرية كما حددها دافيد يلين كالآتي:

- وزن الهزج/هامرنين

- وزن الوافر/هاميروباح

- وزن الكامل/هاشلام

- السريع/هامهير

- الرمل/هاكلوة

- الخفيف/هاكال

- المجتث/هاكتوا

- المتقارب/هامتقريب

- المتدارك/هانسماخ

- الطويل/ها أروخ

- البسيط/ها متبشيط

- المديد/هامتموداد

إلى جانب ما تقدم، لم يهمل الشعراء دور الموسيقى في تطوير الوزن العبري، إذ العلاقة بينهما متداخلة؛ فكلمة «نيكون»/ موسيقى، تعني العلامات التي تحدد إيقاع الجملة. وإذا كان لبعض علماء العرب معرفة بالموسيقى مثل الكندي والفارابي، فإن بعض اليهود سار على أثرهم، ومنهم «ابن ميمون» و«أبو الفضل حسداي» و«منصور اليهودي» الذي كلفه السلطان عبد الرحمن الثاني أن يأتي بزرياب إلى قصره.

والكتاب بصفة عامة، هو دراسة مستفيضة للشعر اليهودي في الغرب الإسلامي، كشف الدارس من خلالها عن موروث شعري يهودي، بدءاً من مدارس البيوط الفلسطيني ومروراً بالشعر اليهودي الأندلسي، وانتهاء بالشعر اليهودي المغربي؛ فقد عرف ببعض الكتابات التي شكلت حجر الزاوية في الشعر اليهودي، كما سمح له التحليل المنهجي بأن يدرك علاقة الشعر اليهودي عامة، والمغربي خاصة، بالأدب الربي التقليدي والهكدا والمدراش والقابلة والفلسفة والطقوس.

إنّ فضل هذا الكتاب لا يدركه إلّا الناظر فيه، وتبين مضمونه؛ فعنوان الكتاب قد يوهم أن صاحبه خصصه للشعر وما يمت إليه بسبب، ولكن الحقيقة أن الكتاب معلمة واسعة، وصورة ظاهرة لثقافة يهودية متشعبة الأطراف. فقد شمل الكتاب طائفة من الشعراء اليهود الذين ينتمون إلى أقطار مختلفة (فلسطين، الأندلس، المغرب)، ومن برع منهم في تأليف موضوعات شعرية تعكس حياة الفرد الخاصة بأفراحها وأحزانها، كما تضمن الكتاب معارف قبالية وفلسفية؛ فقد «أرخ فيه للحركة الشعرية اليهودية، وأبان فيه عن أصولها القديمة وما لحقته من طرائق القول وبدائع البلاغة ومسبوك الأوزان والتفاعيل التي ورثها فن القول اليهودي عن العرب في الأندلس، ورثها يهود المغرب عن إخوانهم الذين جاؤوهم من هناك بعلم

غزير، أورد في الكتاب نماذج غنية بجميل الصور البلاغية، ولكن بالأساس بكثير من الأحداث التاريخية التي أرخت للمغرب عامة ولليهود خاصة؛ فالشعر اليهودي الأندلسي والمغربي هو ديوان تاريخ قبل أن يكون ديوان شعر»[41].

4- ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب

mille de vie juive au maroc; histoire et culture, religion et magie, paris, 1983

الكتاب من الحجم المتوسط، تُرجم إلى اللغة العربية بعناية الأستاذ أحمد شحلان والأستاذ عبد الغني أبو العزم.

ضم الكتاب بين دفتيه مقدمة وستة فصول، تناول فيها الكاتب يهودية المغرب الأقصى التي ظلّت حبيسة قوانين مستقاة من التوراة والهلاخا، فاحتفظت بروابط وثيقة مع الفكر اليهودي العام، على الرغم من أن هذه اليهودية هي أيضا وليدة تربة المغرب، حيث ولدت وترعرعت وعاشت حوالي ألفي سنة، فتربّت وتفاعلت مع المحيط في ظلّ التقارب اللغوي وتشابه التكوين العقلي، والتضامن الفعال، مع قدر لا يستهان به من المساواة، بل الانسجام الدّيني، وهي أمور تبلورت في مظاهر العيش اليومي، والمناسبات الفريدة في الحياة[42]. لذلك، أكب المؤلف على دراسة الفكر اليهودي المغربي في كتابه انطلاقا من خمسة مستويات كبرى، هي المستوى التاريخي والاجتماعي والاقتصادي والفكري والديني.

أ- المستوى التاريخي

يعدّ اليهود أول مجموعة غير أمازيغية عاشت في المغرب وما تزال تعيش فيه، على الرغم من اختلاف الآراء حول وجود الأثر اليهودي في المغرب؛ ذلك أن الأخبار المتعلقة باليهود قديماً نادرة، بينما توجد معلومات مهمة تعلقت باليهود الذين عاشوا في العهد الإغريقي الرّوماني، إذ توجد كتابات الأخبار والنقوش والأثريات، ومنها بقايا شاهد قبر يحمل الكتابة العبرية «**مترونا بت ربي يهوده نح**»؛ أي (**السيدة بنت الربي يهودا لها السكينة**).

وناقش الكاتب، من جهة أخرى، نظرية الأصل البربري لليهود التي اعتبرها بعض المؤرخين مسلمة ثابتة، بينما أنزلها البعض الآخر منزلة الشك والنفي، مثل «h.hirsberg» الذي بنى نفيه للنظرية على غياب اللغة البربرية في الآداب اليهودية. وعلى الرغم من أن يهود المغرب كانوا في تعليمهم التقليدي في الأوساط

41 - انظر مقدمة كتاب «يهود الأندلس والمغرب» لحاييم الزعفراني، ترجمة أحمد شحلان، مطبعة النجاح، الجزء الأول، ص10

42 - حاييم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، (ترجمة د. أحمد شحلان، د. عبدالغني أبو العزم)، ص7

البربرية يعتمدون في تفسير النصوص المقدسة وترجمتها على اللغة البربرية، فإن الكاتب ترك أمر البحث في نظرية الأصل للأساطير والأخبار.

ومع مجيء الفتح الإسلامي إلى بلاد المغرب، والذي أدرك قبائل مسيحية ويهودية ووثنية، فقد عاملها الفاتحون، ومنهم المولى إدريس الأول، معاملة أهل الكتاب طبقاً لقوانين الشريعة الإسلامية، كما ترك المولى إدريس الثاني اليهود داخل أسوار فاس القديم، حتى أسّس المرينيون ملاح فاس الجديد[43].

ولما بنى يوسف بن تاشفين مدينة مراكش سنة 1062م، منع اليهود من دخول المدينة، فظلّوا يقيمون في أغمات[44]، يأتون إلى مراكش نهاراً لقضاء أغراضهم، ثم يعودون مساءً إلى مكان إقامتهم (أغمات). وبخلاف ذلك، سمح أحمد الذهبي السعدي (1578-1603م) ليهود أغمات بالإقامة في مراكش.

لقد تعامل الدارس مع الأحداث التاريخية المتعلقة بيهود المغرب، تعاملاً مادياً، إذ اعتمد على وثائق تشهد على قدم الأماكن اليهودية في شمال وجنوب المغرب الأقصى، ويتجلّى ذلك في وثائق «الكنيزة» (مخزن الوثائق)[45]، هذه الوثائق التي لم يصل منها إلا الجزء اليسير بفضل أعمال «ب. غواتين» b. goitein، والتي تفيد أن يهود المغرب كانت لهم علاقات مهمة مع الأكاديميات البابلية (مدرسة سورا - بمبيدة.) والأكاديميات الفلسطينية، خلال فترة «الكؤونيم» التي امتدت من القرن السادس إلى القرن الثاني عشر الميلاديين.

أما اليهودية الأندلسية، فقد شهدت رخاءً واطمئناناً، إذ لعبت هذه الطائفة دور الريادة في الحياة الاقتصادية والفكرية. فقد أدى سقوط الأندلس إلى توافد يهودها على بلدان المغرب، فوصل مهجّرو (1492-1497) الإسبان والبرتغال في موجات متتابعة، حاملين معهم لغة الأجداد القشتالية وعلومهم وأعرافهم وعاداتهم.

وعلى الرغم من بعض الخلافات التي حصلت بين اليهود المحلّيين واليهود المهجرين في بعض الطقوس والأعراف، فإن اليهود الجدد أخذوا قيادة الجماعات اليهودية، فأصبح منهم علماء في الشريعة، ورجال أعمال، ومستشارو الملك، وقناصل، ومن هؤلاء نذكر: «ابن عطار»، «ابن دنان»، «ابن سور»، «بردیکو»، «طولیدانو». وقد ساعد هذا على بناء علاقة تعايش كبيرة بين اليهود المسلمين في المغرب، حيث كانت تتميز بالتعاون المثمر ماعدا في بعض فترات الجفاف والمجاعة.

وفي القرن الأخير، انفتح اليهود على أوربا، فرأى بعضهم في ذلك تحرّراً ورقيّاً اجتماعياً، وبعد قيام إسرائيل (1948)، هاجرت مجموعات يهودية إليها، فيما فضلت مجموعات أخرى الهجرة إلى فرنسا، وإسبانيا، وكندا.

---

43 - يقع ملاح فاس الجديد بين القرويين وباب الكيزة، ويسمى(فندق اليهودي).

44 - تبعد أغمات على مراكش بحوالي 40 كلومترا.

45 - الكنيزة أو مخزن الوثائق، تتضمن وثائق تم اكتشافها في البيعة القديمة بالقاهرة- مصر، أواخر القرن العشرين.

وعلى المستوى الجغرافي، قسم الباحث الطوائف اليهودية التي سكنت بلاد المغرب، إلى ثلاث مجموعات إثنية ولغوية، اجتماعية وثقافية، تأتي كالآتي:

- مجموعة استقرت في الشمال: وتتكون من اليهود الذين قدموا من الأندلس والبرتغال، ويتكلمون القشتالية.

- مجموعة تتكلم اللغة العربية: سكنت في جبال البلاد وسهولها.

- مجموعة تتكلم الأمازيغية: سكنت في بلاد الشلوح، وتمازيغت، وسوس.

وعلى الرغم من اختلاف اليهود في اللهجات المستعملة، فإن اللغة العبرية ظلت هي اللغة الأولى للشعائر والتعليم التقليدي. وقد اعتمد الباحث في هذا التوزيع الجغرافي على عدة وثائق مختلفة، منها القائمة الربية المؤرخة في 1728م، وهي قائمة اعتمد عليها عدد من الدارسين بعد أن حققوها وبينوا ما يعتريها من نقص وخلل، فضمنوها الأماكن التي أقام فيها اليهود، وهي: فاس - مراكش- تلمسان - تارودانت - سلا- تافيلالت - غرسلوين - غيريس - دمنات - أيت عتاب - أزاغين - القصر الكبير - تفزا - دبدو - أيت كفرا - مكناس - أمزميز - وجدة - تازة - بوتات الحاج - بويحيى - بني عياط - تطوان - صفرو - أزرو.

ويجدر التنبيه إلى أن الكاتب لم يعتمد على هذا المسرد فقط، وإنما اعتمد على بعض المصنفات التي تناولت بالذكر أسماء الأماكن التي أقام فيها اليهود، ومنها: كتاب ألفه يوسف بن داود نحمياس[46]، هذا بالإضافة إلى شهادة الربي يعقوب بن حمو[47] التي تحدثت عن مملكة يهودية تسمى «تمكروت»، إذ أكد الشاهد أن تمكروت كانت بلاداً لسلطان اليهود «صمويل بن يوسف» الذي قتل في إحدى المعارك ضد المسلمين في أحد أيام 9 آب.

ب- المستوى الاجتماعي

قسّم المؤلف الطائفة اليهودية إلى مجموعتين عرقيتين (البلديين والمهجريين) تختلفان أصلاً ولغة، كما يختلف مستواهما الثقافي ومفاهيمها الاجتماعية والأخلاقية، مما ولد صراعاً بين المجموعتين، مسّ قواعد الأكل، والشرب والشعائر، وقانون الأحوال الشخصية، والضرائب. ومهما يكن من خلاف بينهما، فإن الإسلام أخضعهما لقانون الذمة، باعتبارهما من أهل الكتاب، فتمتعتا باستقلال ذاتي كامل -بعد حل الخلاف-، إدارياً، وثقافياً...

46 - ربي طيب الذكر عند يهود مراكش والجنوب المغربي (المؤلف).

47 - من يهود بني صبيح، جنوب المغرب (المؤلف).

ويتعاون في إدارة الطائفة اليهودية داخل «مجلس الطائفة»، الأشخاص المختارون من الطبقات الاجتماعية:

- **الأحبار الرسميون** (حخميم)، والقضاة (ديانيم)، وهم أصحاب الأمر والنهي في الأمور الشرعية.

- **الأعيان** الذين يخدمون مصالح الطائفة العامة، ويسهرون على شؤونها، وقد يتسلطون أحياناً ليستفيدوا شخصياً.

وكان هؤلاء يلقبون ألقاباً تشريعية، منها: روش هقهل (شيخ الطائفة)، طوبي هعير (أخيار المدينة) مخبد هقهيلوت (أشراف الطوائف).

أما النكيد (شيخ اليهود)، فهو همزة الوصل بين اليهود والسلطات الرسمية للبلاد أو المدينة، ودوره هو ضمان استتباب الأمن في الملاح، وحماية اليهود.

ويسهر على القضاء بدار العدالة (بيت دين) قاض واحد (بيت دين شل يحاد) أو ثلاثة قضاة (بيت دين شل شلوش)، وتسمى المحكمة الكبرى (بيت دين كدول). أما المساعدون القضائيون، فهم كتاب العدل الموثقون ‹سوفريم ›، ويفترض فيهم التمكن من التشريع وما تقضيه القوانين.

وتتجلى المؤسّسات اليهودية في:

- **البيعة:** وهي نقطة الالتقاء الطبيعي «للقهل» العامة، وبيت الصلاة ومقر الدرس والتعليم (حدر-يشفاه...)، كما يتخذ فيها مجلس الطائفة قرارته ويعلن عن المراسيم.

- **الحبوس والأعمال الخيرية**: وهو ما تملكه الطائفة بالشراء أو العطاء أو الوصية، فتخصصه للأعمال الدينية أو الخيرية المسماة «هقديس» (ملك يحرم التصرف فيه).

- **تسهر الجماعة** على تمويل بعض مؤسسات «تلمود توراه» (مدارس تقليدية) رغبة في التطبيق الحرفي لعدد من الأوامر والقواعد الدينية.

- **الضرائب**: تتحمل الطائفة ثقلا ضريبياً، منه ضريبة الجزية، وتؤدي سنوياً ضريبة عن كل ذكر بالغ، بالإضافة إلى ضرائب أخرى تؤدى في المناسبات كالأعياد. أما اليهود الذين يخدمون الملك، فيعفون من الضرائب، خصوصا النكيد (شيخ اليهود).

- **شرطة الأخلاق**: وتسعى إلى الحفاظ على احترام الأخلاق الحميدة، ونقاوة الحياة الزوجية والعائلية وفقا للعادات اليهودية التقليدية.

وإلى جانب ما تقدم، فإنّ اليهود كانوا يزاولون في حياتهم الخاصة بعض العادات والتقاليد الاجتماعية، ومنها بناء الحياة الزوجية التي تبدأ بالخطوبة، حيث يقدم الخطيب لخطيبته عدداً من الهدايا (سابلونوت)، ويتضمن سبعة أسورة من الذهب وخاتماً يحمل جوهرة ثمينة وخماراً من الحرير، ولوازم أخرى. أما الزواج، فتعاقد أساسه التشريع الديني، إذ يبارك بالمباركة الزوجية أولاً، وبالصيغة الشعائرية ثانياً، والزواج هو عقد يتضمن عدداً من الإجراءات، وللزوجين الحق في الاختيار بين مختلف أنظمة الزّواج، وهي الصداق أو النظام التقليدي والقشتالي، وهو نظام يهدف إلى حماية مصالح المرأة في حالة وفاة زوجها أو الطلاق منه، ويمكن للزوج بالإضافة إلى عقد الزواج اليهودي (الكتوبة) أن يحرر عقداً يسمى بالصداق يقدمه الزوج لزوجته، ويتم تحريره أمام قضاء إسلامي مكون من قاضٍ وعدلين. وأشار المؤلف إلى أن التشريع اليهودي يسمح بتعدد الزوجات في الحالات الآتية:

- عقم الزوجة الأولى.

- احترام وصية الليفيرا[48].

ويقصد بالطلاق فسخ الرابطة الزوجية؛ وذلك لأسباب كثيرة نذكر منها:

- الزنا، وبسببه يطلق الزوج زوجته ويسلمها (كيت).

- الامتناع عن المعاشرة.

- العقم، وقد حدد الشرع اليهودي ذلك في فترة زمنية تتراوح ما بين خمس وسبع أو عشر سنوات.

ويحتل الموت في الفكر اليهودي أهمية كبرى، إذ يرى فيه اليهودي خلاص الحياة، وفيه يلقى حسابه بالعقاب أو النجاة.

ت- المستوى الاقتصادي

زاول يهود المغرب أنشطة اقتصادية متنوعة من تجارة وصناعة وفلاحة؛ فالتجارة تمركزت بين أيدي طبقة لها رؤوس أموال وعلاقات مع المخزن. أما الصناعة، فشملت ما برع فيه اليهود مثل صياغة المعادن الثمينة كالذهب والفضة والجواهر، وصناعة خيوط الذهب والفضة (الصقلي) والحرير «تاحرارت» كما تعاطوا لبعض الحرف الأخرى، مثل الخياطة والبناء (الحياطيم- هابانييم).

48 - الليفيرا؛ إلزام يفرضه الدين اليهودي على كل أخ توفى أخوه، فيلزمه بالزواج من الأرملة التي لم تنجب من أخيه المتوفى، حتى يضمن لهذا الأخير دوام النسل.

أما المجال الفلاحي، فقد أكد بعض الدارسين على اهتمام اليهود بالفلاحة، ومنهم «ناحوم سلوش» الذي مرّ سنة 1914 بقرية منصور في الأطلس المغربي، فوجدها تضم خمساً وعشرين عائلة من الفلاحين، كما أكد المؤرخ الإسرائيلي «هـــ.هرزبيرغ» أن بعض يهود المغرب كانوا يعملون بعرق جبينهم في ملكيات زراعية صغيرة، هذا بالإضافة إلى من كان يملك منهم أملاكاً عقارية في وادي تدغة، ولديهم حقول وعدد كبير من النخيل.

وتسهم التعاونيات من جهة أخرى، في تحريك الحياة الاقتصادية داخل الطائفة اليهودية، والتعاونية (حبرا) لا تدل على تجمع مهني فقط، بل هي إطار لنشاط اقتصادي وديني وثقافي مكثف، كما كانت السلطات الربية تسهر على المنازعات العقارية والتجارية التي كانت تحصل بين اليهود محاولة الحفاظ على سلامة العلاقات بين المتنازعين، وقد يلجأ المتنازعون أحيانا إلى الشريعة الإسلامية.

ويجدر التنبيه إلى أنّ يهود المغرب كانوا يقيمون علاقات مع يهود الأرض المقدسة، حيث كان أحبار يأتون لجمع الأموال؛ فقد كان الأحبار الرسل يعملون على جمع الأموال أولاً، ونشر المعارف اليهودية عن طريق التعليم أو الوعظ ثانياً، ولذلك كانوا يحظون بإجلال وتقدير كبيريْن من طرف اليهود لما لهم من علاقة بأرض الأجداد، ويعدّ «يوسف بن موسى ميمران»[49] و«رفاييل أحانا»[50] من الأحبار المغاربة الذين قاموا بدور كبير في نشر التقاليد اليهودية. ومن جهة أخرى، فقد نقل الأحبار الرسل إلى المغرب مؤلفات مدرسة صفد القبالية، ومكتوبات أعمال الفقه الربي والتفاسير التوراتية والتلمودية، مما حفز على إرسال طلبة إلى حواضر الثقافة اليهودية الكبرى (القدس- طبرية- صفد) كما هاجر أحبار إلى بلدان أخرى، ومنهم: «إسحاق أوزيل»[51] و«اليهود بن أموزيك»[52].

وعلى مستوى القضاء، تسمح علاقات الأدب القضائي المباشر مع الناس، والحياة وحقائق الوجود، بمعرفة الطوائف اليهودية في المغرب من الداخل؛ وذلك من خلال القضايا الشرعية التي تتناول كل الحياة العامة والخاصة، كقانون الأحوال الشخصية والبنى الاجتماعية والاقتصادية للطائفة، والنمط الإداري وما يحدث في سلوك الفرد والجماعة، والعلاقات مع الوسط الإسلامي المجاور.

وفي هذا الصدد، وضع المؤلفون المغاربة عدداً مهما من الكتابات الهلاخية الفقهية التي تتضمن أحكاما وقرارات قضائية وفتاوى ومراسيم.

---

49 - يوسف بن موسى ميمران، ولد في تطوان وهاجر إلى صفد، وهو أول حبر يصل إلى آسيا الوسطى، ليعمل مرشداً روحياً ببخارى.

50 - رفاييل أحانا، ولد في مكناس عام 1850، هاجر مع جده إلى طبرية عام 1865، ورحل رسولا في سن الثلاثين، قام برحلة إلى المغرب في 1897، حصل على إجازة الأحبار من مكناس. (المؤلف).

51 - نحوي وشاعر، عين حبرا بأمستردام وتوفي بها سنة 1620م

52 - ناشر مشهور، نشر كثيرا من مؤلفات يهود المغرب، ترك مدينة الصويرة واستقر في إيطاليا.

ويجدر التنبيه إلى أنه خلال القرون الأربعة التي تلت الخروج من الأندلس سنة 1492م، هيمن على التشريع الربّي مفهومان؛ مثّل الأول منهما مدرسة «أشير بن يحئيل» (ق14م)، وهي مدرسة تمثل امتداداً وإرثاً للمدرسة الأندلسية التي نقل الربّيون القشتاليون آثارها إلى المغرب بعد خروجهم من الأندلس، وظلوا محافظين على أعراف الأجداد وعاداتهم، حتى وصلت آراء يوسف كارو (إسبانيا)، فانتشرت بسرعة في الأوساط الربية، يقول الدارس: «أثر عمل يوسف كارو، المتمثل في مؤلفيه ‹صور بت يوسف› و›شولحان عروخ› مع تفاسيرهما منذ ذلك تأثيرا كبيرا في تعليمهم الهلاخا في ‹اليشفوت›، وفي الأحكام القضائية للمحاكم الربية والأدبيات القضائية الناتجة عن تلك الأحكام»[53].

ث- المستوى الفكري

ويبدأ بالتربية والتعليم، فالتربية تعني تكيف الفرد داخل الجماعة، حيث يتشبّع بنفس الروح التي تهدف إلى تكوين شعب متميز. ويسعى التعليم الأولي إلى إشراك الطفل في العبادة واكتسابه للتقاليد والتعاليم؛ وعندما يبلغ الولد الرشد؛ أي الثالثة عشر من عمره، فإنه يُحتفل به (بار مصواه)، ومن ثم يصبح حريصاً على القيام بالواجبات التي تأمر بها التوراة.

ولا يلتحق بالتعليم العالي (اليشفاه) إلا المتأدّبون الراغبون في اكتساب معارف عميقة، كالشريعة وأدبيات الربيين، وتعلم الجدل والتأويل، إلى جانب حفظ فقرات من التوراة.

وتقف تربية البنت عند سن الزواج المحدد في ما بين سن العاشرة والثانية عشرة، إذ إن دورها منحصرٌ في السّهر على شؤون البيت.

وإذا كانت المؤسسات التعليمية التقليدية تعتمد على طرائق تربوية تقليدية (الاكتساب الآلي لقراءة الحروف الأبجدية - المراقبة الشفوية - الترهيب في التعليم...)، فإن مدارس رابطة الاتحاد الإسرائيلي سعت إلى نشر مناهج تعليمية حديثة تتضمن تعليم اللغة الفرنسية، ونشر الفكر العلماني، الأمر الذي أثار جدلاً في الأوساط الربية اليهودية المحافظة.

وإذا كان الفكر التشريعي هو مرآة تعكس الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية للطائفة، فإن الشعر هو تعبير عن الفكر الخالص، ودفق للروح وانبثاق إحساس فياض يهتز لأبسط العواطف في لحظة من لحظات الفرح أو الحزن. لذلك، أبدع اليهود في موضوعات شعرية شتّى، يمكن تصنيفها على الشكل التالي:

- **باقشوت:** وهو عبارة عن توسّلات وأدعية تعلن بصدق عن علاقة الشاعر بالله والعالم.

53 - المرجع نفسه، ص176

- **التحنوت:** شعر الابتهال، وفيه يعبر الشاعر عن ضيق النفس وطلب المغفرة من الله.

- **أهابوت:** أناشيد الحب، وفيها يتغنى الشاعر بحب الله لإسرائيل.

- **الشعر الصوفي؛ وشعر الوصف.**

أما النثر «الميليصاه»، فهو نثر موزون ومسجوع، يراعي فيه الكاتب تقنية «شيبوص»: التطريز؛ وكان الأدباء المغاربة يعمدون في مراسلة الأصدقاء إلى الميليصاه.

وإلى جانب ما تم ذكره من شعر ونثر، برع اليهود في نوع أدبي آخر، وهو الأدب القبالي، والذي تمركز في جنوب البلاد (سوس- درعة- تارودانت- تافيلالت...)، حيث سادت حركة صوفية هائلة، وكان بها نشاط قبالي كبير خصب وخلاق. وإذا كان الفكر الصوفي موقوفاً على نخبة ضئيلة، فإن القبالة كانت تعرف في بعض جوانبها وطلسماتها التي تقارب السحر اهتماماً واسعاً ونفوذاً شعبياً عظيماً، ومن الأعلام الذين اشتهروا بالفكر القبالي، نذكر:

- **إبراهام الصباغ:** أندلسي الأصل، ألف كتابه «سرور هامور: حصن الرخام» في فاس ما بين 1498-1501.

- **شمعون لابي:** ألف كتاباً في شرح الزوهار تحت عنوان: «كيتيم باز»: «الذهب الإبريز»، كما نظم قصيدة «بار يوحاي» التي أصبحت تنشد عشية السبت، (استقر في فاس بعد نفيه من قشتالة).

- **إبراهام بن موردخاي أزولاي:** ولد في فاس، وتلقى تعليماً تقليدياً وقبالياً، استقر في حبرون (الخليل) في بداية القرن السابع عشر، وضع تفاسير وحواشي لدراسة الزوهار.

- **موسى بن ميمون الباز:** عاش في تارودانت، وألف كتاب «مقالات قبالية»، وكل ما يعرف عن هذا الرجل أنه عاش في دبدو شمال شرق المغرب، دفن في تامكروت في درعة، ألف كتاباً عنوانه «سفر هملخوت: كتاب الملك».

- **إسحاق لوريا الإشكنازي:** (1534-1572)، اشتهر بالأسد، وهو مؤسس مدرسة صفد.

أما أدب الوعظ «دراشاه»، فهو عبارة عن دروس تقدم للعامة، وتتضمن تفسيراً لمعنى الكتاب المقدس ولمغزاه التاريخي، وغالباً ما تستمد الخطب الوعظية من التوراة، وخصوصاً «الهكاداه» (الأسطورة) التي تعتمد في موضوعاتها الخيال. ويبدأ التدريب على الخطبة في مرحلة مبكرة جدّاً، بدءاً من احتفال «بار مصواه».

ويبقى الأدب الشفوي الحارس الأمين على التقاليد غير المكتوبة، فهو يمسّ القضايا الاجتماعية والتاريخية، ويتميز بإدخال الخيال في البيئة المغربية، كما يهتم بالأنساب الدينية. وإذا كان الأدب الشفوي مكتوباً، فإن ذلك يحدث صدفة كي لا ينسى.

ج- المستوى الديني والشعائري

الشريعة «الهلاخا» لفظة مشتقة من الفعل العبري «هلخ»؛ أي سار (شرع)، والهلاخا في معناها العام، القواعد التي يجب السّير عليها؛ أي الطريق المستقيم، وتقابل لفظة هلاخا، الشريعة في الدين الإسلامي.

وقد أخلص اليهود المغاربة للعادات والأعراف القديمة التي أقرّتها المراسيم، كما ارتبطوا بالتقاليد التي ورثوها عن أجدادهم، ولذلك كان الربّيون المغاربة يستندون في كتاباتهم الشرعية على الأقوال القديمة «المشنية» والتلمودية المتعلقة بـ «لمنهك»؛ أي العادة.

وتحتلّ «الكونة»، وتعني تركيز الذهن، مكاناً مفضلاً في الصلاة الصوفية، فهي إحدى مكوناتها السيكولوجية المهيمنة كما احتل فعل الحلول «اليحوديم» مكانة خاصة في الصلاة كذلك، وهو تأمل في تركيب حروف يهوه أو أسماء الله الأخرى، كما يهدف صاحبه إلى السمو بالروح من أجل التواصل مع الأرواح أخرى «الصديقم: الصديقون».

ومن أبرز الشعائر الدينية التي زاولها اليهود في احتفالاتهم الكبرى، نذكر:

- احتفالات يوم السبت واحتفالات بداية الشهر (روش حودش).

- تتخلل السنة ثلاث مناسبات للحج (شلوش ركليم)، وهي:

- بصح (عيد الحصاد)، شفعوت (الأسابيع)، سكوت (عيد الخيام).

إضافة إلى إحياء بعض المناسبات التاريخية مثل «حنوكة» و«بوريم».

تقودنا قراءة كتاب «ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب» إلى عدد من الكتابات التي تناولها الأستاذ حاييم الزعفراني بالدرس في موضوع اليهودية المغربية، مما يجعلنا نقرّ أن هذا الكتاب هو ثمرة كتابات سابقة، اختمرت موضوعاتها في ذهن الكاتب، فألف هذا الكتاب، الذي جمع فيه بين التاريخ والاجتماع والفكر والدين، كما رام فيه المنهج التاريخي، والاجتماعي والوصفي، زد على ذلك أسلوب التوضيح والتبسيط، وكأن الدارس يشرح ويفسر ما سبق تناوله بالدرس في كتاباته السابقة.

وتجدر الإشارة إلى أن المؤلف أعاد طبع الكتاب في حلّة وعنوان جديدين سنة 1998، فجاء موسوما بـ:

- ألفي سنة من حياة اليهود بالمغرب

deux milles ans de vie juive au maroc[54]

«... وهو كتاب سطّر فيه المؤلف حياة هؤلاء الناس منذ كانوا مواطنين مغاربة أصلاً، رفضوا الوثنية أيام جاهلية التاريخ قبل الإسلام، ومنذ وصلت بعض موجات منهم قدما في ركاب الفنيقيين أو أرذاذ الرومان، أو بعد أن تنكرت ‹إزابيلا› ملكة الإسبان لجميل التاريخ، فهجرت منهم أمواجاً وأمواجاً، ففتح لهم المغرب الذراع، ومكن لهم في كلّ أرجائه، وهو يستقبلهم ورفاقهم المسلمين المنكوبين وإيّاهم، دون تمييز بين هؤلاء وهؤلاء، وأرخ الأستاذ الزّعفراني فيه ليهود المغرب، وهم ينشطون في كل مناشط الحياة مذ ذاك، ووصف أحوالهم، وهم يعيشون أفراحهم وأحزانهم وأفراح مواطنيهم المسلمين وأحزانهم....»[55].

5- القبالة حياة تصوّف وسحر

kabbale, vie mystique et magie, paris, maisonneuve et larose, 1986 et 1996

القبالة لفظ يدلّ على مرويّات تواترت عن الأنبياء المذكورين في العهد القديم، ثم دلّ فيما بعد على نوع من التصوّف؛ فقد ذكر «جورج فايدا» في كتابه «**مقدّمة في الفكر اليهودي خلال العصر الوسيط**»، أنّ القبالة يقصد به النتاج الذي يفترض فيه أن يتضمّن إضافة إلى الباطنية اليهودية جماع الكتابات التلمودية والمدراشية، وكذا كلّ الآراء والمعتقدات الكلامية والفلسفية التي عرفتها العهود اليهودية العربية... والقبالة هي أيضاً رفد النتاج الفكري اليهودي[56].

صدر كتاب القبالة سنة 1986 في باريس مكتوبا باللغة الفرنسية، وأعيد طبعه سنة 1996، ويتألف من مقدّمة وتسعة فصول وخاتمة.

أشار حاييم الزعفراني في مقدّمة الكتاب، أنّه لن يتناول التيارات الكبرى في التصوّف اليهودي، بل سيعمل على توضيح بعض أوجه التصوّف اليهودي في المغرب، وبالتالي إثباتها تاريخياً، وإثبات صحة المؤلفات القبالية وهويّة أصحابها.

وإذا كان القبالة شاهداً على وجود اليهودية في الغرب الإسلامي، فإنّ ذلك يعود إلى الاجتهادات القبالية التي قام بها قباليو درعة، وتافيلالت، ومهاجرو الجزيرة الإيبيرية؛ فقد استمدّوا جهودهم من كتاب الزوهار

54 - haim zaafrani, deux milles ans de vie juive au maroc, paris, geuthner, 1998

55 - مقدمة كتاب «يهود الأندلس والمغرب» حاييم الزعفراني، ترجمة أحمد شحلان، ص11

56 - المرجع نفسه، ص209

الذي صار له الأثر الواضح في الحياة الثقافية والدينية اليهودية في المغرب. يقول الزّعفراني: «الزوهار، من جهة، موجّه لإبداع أدبيّ قبالي وباطني، خصب ومتعدّد، ومن جهة أخرى، محمّل ببعض التاريخانية، ووسيلة تعبيرية لحياة صوفية دائمة»[57].

أمّا الفصل الأول من الكتاب، فجاء مقسّماً إلى جزأين؛ عنون الأول منهما بالوعي الصوفي، وعرّف فيه القبالة، بأنها تعني في الفترة التلمودية والكؤونية، كتاب الأنبياء في التوراة، وتطابق بدورها تقريباً المذاهب الباطنية، كما تظهر القبالة في الكتابات المدراشية والهكادية، وفي موروث الكؤونية الفلسطيني، وفي الحركات الحسيدية الأشكنازية.

وظهرت القبالة في المغرب -يضيف الكاتب- في كتابات «باحيا بن بقودة» و«أشير بن داود» و«عزرا بن سلومون» و«أبراهام أبو العافية».

وعنون الجزء الثاني من الفصل الأول بالتصوّف اليهودي والتصوّف الإسلامي، حيث ذكر فيه أنّ اليهودية والإسلام يلتقيان في الفكر الصوفي؛ ذلك أنّ كلمة متصوّف تعني العالم بأسرار جماعية دينية مغلقة، والمنشغل بالبحث في معرفة الله من خلال تجربة شخصية، وإذا كان التصوّف الإسلامي يعتمد على طريقة نظامية في اتحاد الروح مع الله [الحلولية]، فإن التصوّف اليهودي كذلك، هو عبارة عن اتحاد أو مسيرة نحو توحد خاص بين الروح والله [الكونة].

لقد استفاد العديد من اليهود من المعرفة الصوفية الإسلامية، ومنهم «باحيا بن بقودة» و«أبراهام أبو العافية» و«أبراهام عباديا». ومن أهم أعلام التصوف الإسلامي الذين اهتم اليهود بالاطلاع على تجاربهم، ذكر الزعفراني علمين مشهورين، هما: «محيي الدين بن عربي»[58] و«أبو حامد الغزالي»[59]، حيث ترك التصوف الإسلامي بصمات واضحة في التصوف اليهودي في الأندلس والمشرق، والدليل على ذلك أنّ ما قدّمه باحيا بن بقودة في كتابه «الهداية إلى فرائض القلوب» يلتقي مع ما قدمه الغزالي في كتابه «ميزان العمل»، إذ تضمن حيزاً واسعاً لعلم القلوب، كما أن المفاهيم التي تناولها «باحيا بن بقودة» في كتابه حول الإخلاص، والتوكل، واعتبار المخلوقين، وطاعة الله، والتوبة، والمحاسبة، ليست بالمفاهيم الغريبة عن الحقل الديني الإسلامي. كما عاش في المغرب الإسلامي يهود كتبوا بدورهم في التصوّف والزهد، ومنهم: «إسحاق بن غياث»، «سلومون بن جبرول».

57 - haim zaafrani. kabbale; vie mystique et magie; paris ;maison neuve; 1986 et 1996; p11

58 - محمد بن علي بن محمود، محيي الدين بن عربي، ولد في مورسيا في إسبانيا سنة 1165م، وتوفي في دمشق سنة 1240م، من مؤلفاته المشهورة «الفتوحات المكية»، و«فصوص الحكم»، وركز في توجّهه الصوفي على فكرة الإنسان الكامل.

59 - ولد أبو حامد الغزالي سنة 1059م، درس الفلسفة اليونانية عن طريق الفارابي، والكندي، وابن سينا، ألف كتاب «مقاصد الفلاسفة»، «تهافت الفلاسفة»، و«إحياء علوم الدين»، ترجمت بعض كتاباته إلى العبرية خلال القرن الثالث عشر للهجرة. ترجم كتاب «مقاصد الفلاسفة» إلى العبرية إسحاق البلاغ.

وفي النصف الثاني من القرن الرابع عشر، ألّف «نسيم بن مالكا» الذي عاش في فاس كتاباً حول التصوّف [كتاب غير موجود] كما اهتم «أبراهام بن موسى بن ميمون» بالتصوف من خلال كتابه «كفاية العابدين»، ليمثّل التصوّف اليهودي في الواجهة الأخرى للغرب الإسلامي؛ أي مصر.

وشمل الفصل الثاني من الكتاب الحديث عن القراءات الزوهارية، حيث تحدّث فيه الزعفراني عن كتاب الزوهار الذي يعود تاريخه إلى القرن الثالث عشر، كتبه «موسى ليون» بالقشتالية. ويجدر التنبيه إلى أن هذا الكتاب لعب دوراً كبيراً في الحياة الدينية اليهودية؛ فهو الأسطورة والذاكرة والمرآة التي ترى فيها الروح، لذلك حافظ عليه اليهود، وحملوه معهم إثر طردهم إلى المغرب.

وجاء الفصل الثالث موسوماً بالإبداع القبالي المغربي، وقد فصل فيه الزعفراني الحديث عن القبالة في المغرب، والتي مثّلها أعلام قباليون من درعة وتافيلالت ومهاجرون قشتاليون، ومن القباليين الذين أتى الكاتب على ذكرهم:

- **أبراهام الصباغ**: من زامورا، طرد من إسبانيا سنة 1492م، لجأ مؤقّتا إلى البرتغال قبل استقراره في المغرب، أقام بعض الوقت في القصر الكبير، محاولا إعادة كتابة ما فقد من مؤلفاته، والتي كان من أهمها «سرور هامور» الذي طبعه في البندقية سنة 1523، والذي علق فيه على أسفار موسى الخمسة، ليصير فيما بعد تفسيراً قبالياً للتوراة.

- **يهودا بن موشي هاليفا**: هاجر من فاس في اتجاه الأرض المقدسة في النصف الأول من القرن السادس عشر، عاش في صفد، ثم انتقل إلى دمشق، كانت له علاقة بالمرشدين الروحيين في فاس، وفي 1545، حرر كتابه «سافنات لإينيح»، وهو من المؤلفات القبالية.

- **الربي يوسف بن موسى الأشقر**: يعد من مفسري الموروث القبالي الأندلسي، قدم إلى فاس، ثم استقر في تلمسان.

- **الربي شمعون ليفي**: اشتهر بقصيدته «بار يوحاي»، عاش بعد التهجير الإسباني في فاس.

- **الربي أبراهام بن شلومو أدريتال**: جمع الطقوس القبالية القديمة في مختارة عنوانها «ابن زكرون» [أحجار الذكرى].

- **الربي يهودا حياط**: حرر تعليقا عنوانه «منحات يهودا»[قربان يهودا].

- **أبراهام بن موردخاي أزولاي**: ولد في فاس، استقر في الخليل منذ أوائل القرن السابع عشر، تلقى تكويناً تقليدياً وقبالياً، ألف عددا من التعاليق حول كتاب الزوهار.

- **موسى بن ميمون الباز**: عاش في تارودانت جنوب المغرب، ألف كتاب «هيخل هاقدوش» [الهيكل المقدس].

- **دافيد هاليفي**: عاش في دبدو، وألف كتاب «سفر ملخوت» [كتاب الملك]، طبع في الدار البيضاء سنة 1930م.

- **إسحاق لوريا الإشكنازي**: ولد سنة 1543م، وتوفي سنة 1572م، وهو مؤسس مدرسة صفد. تتلمذ على يديه عدد من الطلبة، منهم:

- **حاييم فيتال**، الذي مثل فكرة امتداد الفكر اللورياني، ألف كتابا تحت عنوان «كتاب الرؤى»، وهو عبارة عن سيرة ذاتية.

- **يوسف بن طبول**، وهو من أتباع إسحاق لوريا، ألف كتابا عنوانه «سفر هادراشوت»، اشتهر باسم يوسف المغربي، كان قبالياً، ولعب دوراً كبيراً في ترسيخ العقيدة التيوصوفية اللوريانية.

وإلى جانب ما تقدم، عني بعض اليهود بكتاب الزوهار، وعلقوا عليه، ومن هؤلاء نذكر:

- **شمعون ليفي**، عالم قبالي، برع في علوم عدة كان منها علم الفلك والطب، علق على كتاب الزوهار في كتاب موسوم بـ «كيتيم باز» يعلق الدارس على هذا العالم بقوله: «يعرف مؤلف كتاب» كتيم باز «العادات الباطنية والتيوصوفية التي نشطت في القبالة في الأندلس... وظل كتاب ‹كتيم باز› أكثر قرباً من المعنى الأول لنص الزوهار، ولم يكن تابعاً لما أنتج في مدرسة صفد»[60].

- **إبراهام بن موردخاي أزولاي**، علق على كتاب الزوهار في كتاب عنوانه «أور هاحماه» [نور الشمس]، وهو كتاب لم يختلف كثيراً عما تناوله صاحب «كيتيم باز».

- **موسى بن ميمون الباز**، ألف كتاب «هيخل هاقدوش»، طبع سنة 5413 [1653] في أمستردام.

وإضافة إلى هؤلاء الأعلام، أشار الزعفراني إلى أنه في ما بين القرنين التاسع عشر والعشرين، نشطت حركة قبالية، مثلها «أبراهام انقاوة» في سلا و«أبو حصيرة» في تافيلالت:

وبعد الإشارة إلى هؤلاء الأعلام اليهود، يعلّق الكاتب بقوله: «لقد أسهم الأدباء المغاربة في التاريخ وفي تطور الفكر الصوفي، الدي تضمن بعض الحركات المسيانية العميقة التي زعزعت مرحليا اليهودية

60 - المرجع نفسه، ص209

المشرقية، ومنها الحركة السبتائية التي انتهت في القرن السابع عشر في أحياء الإمبراطورية الشريفة الكبرى، فتركت آثاراً في بعض النصوص الطقوسية»[61].

وبيّن الدارس في الفصل الرابع من الكتاب علاقة القبالة بالتشريع، مؤكّداً أنّ كتابيْ الزوهار والتلمود كانا المصدرين الرئيسين للقانون اليهودي. أمّا الفصل الخامس، فحاول أن يبيّن فيه علاقة القبالة بالشعيرة، حيث عرّف الشعيرة بأنها عالم الصلاة، بواسطتها تتوّجه الروح نحو الله، والقبالة تجد تعبيرها الكلاسيكي في الشعائر المألوفة، فالكونة [القصد] تحتلّ مكانة مميزة في الصلاة الصوفية.

وفي الفصل السادس، تناول الكاتب علاقة الشعر بالقبالة من خلال عنوان [وعي شعري وعلم باطني]، موضّحاً أنّ أولّ وثيقة تضمّنت علاقة الشعر بالقبالة، هي ما قدّمه «موسى أبنسور» في النصّ المحرّر سنة 1712 في ديوانه «الأصناج الرنانة»، كما تضمّن الشعر اليهودي المغربي تعاليم القبالة اللوريانية، خصوصا أشعار «يعقوب وموسى أبنسور» و«دافيد حاسين» في قصيدته «تيهيلاه داود» بوصفها شعراً صوفياً.

ولم يغفل الدارس في الفصل السابع من الكتاب حديثه عن علاقة القبالة بالموسيقى والأناشيد، على اعتبار أنّ الموسيقى والشعر اليهوديين يعبّران عن انشغالات دينية ووطنية قصد الحفاظ على وحدة العقيدة والفكر، ومن الشعراء الذين برزوا في هذا الاتجاه، ذكر الزعفراني:

- **أبراهام بن عزرا**، شاعر أندلسي، عاش خلال القرن الثاني عشر، وألف كتاب «نشيد الأمم».

- **إسرائيل نجارا**، نظم ديواناً شعرياً بعنوان «زمروت إسرائيل»، وهو ديوان أراد به خدمة الطائفة اليهودية من خلال الحفاظ على لغتها المقدسة.

وتناول في الفصل الثامن حديثاً عن «المائدة المنضودة» كوثيقة صوفية؛ فهي عبارة عن مجموعة من العادات والتقاليد التي وضعها «إسحاق لوريا»، ثم قام «صمويل فيتال» بإحصائها بتوجيه من والده «حاييم فيتال»، وجمعها في كتابه «الأروقة الثمانية» الذي صدر في القدس سنة 5665 [1905].

وأحصى الزعفراني في الفصل التاسع من الكتاب، الكتابات القبالية الموجودة في الجامعة العبرية، ومعهد بن صفي، والمكتبة الوطنية، ومتحف بريطانيا؛ فحصرها في حوالي مئة وخمسين دراسة بأحجام مختلفة.

61 - المرجع نفسه، ص184

وفي خاتمة الكتاب، عرض المؤلف لقصيدة بار يوحاي مترجمة باللغة الفرنسية، والقصيدة عبارة عن مخطوط أصلي عثر عليه في تنغير، ترجم إلى عدد من اللغات، مثل الألمانية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والعربية واللغات السلافية[62].

ملاك القول، إنّ حاييم الزعفراني بحث عن القبالة في كلّ أشكال الفكر اليهودي، بدءاً بكتاب «الزوهار»، وفي الشعر والنثر، والقانون، والأدب القداسي، وفي الأناشيد والموسيقى، وكان قصده من ذلك ما يلي:

- التعريف بالقبالة اليهودية في المغرب.

- التعريف بالقباليين المغاربة الذي أبدعوا في هذا اللون من الفكر، فأغنوا به المعرفة اليهودية.

- التعريف بأشكال الكتابات المختلفة الشعرية والنثرية منها والقانونية التي تضمنت بين ثناياها الفكر القبالي.

والكتاب بصورة عامة، هو رحلة «بدأت من ديار الشرق البعيد في امتداده الذي جعل من التاريخ الإسلامي أفقاً شاسعاً دون غروب، وعرجت على مصر والقيروان وشبه الجزيرة الأيبيرية، ثم حطّت الركاب في هذا المغرب الرائع روعة جباله وسهوله وبحاره وإنسانه، الغني بما يمكن في كل هذه، وبالأخصّ في غنى المخطوط، والمخطوط كنز المعارف ظاهرها وباطنها، ومنه كان جوهر هذا الكتاب»[63].

ختم الزعفراني كتابه بقصيدة لها أثرها في الأدب القبالي، قام بترجمتها إلى اللغة الفرنسية، وهي قصيدة «بار يوحي» التي يردّدها اليهود مساء السبت؛ وفي ما يلي مقطع قصير منها، مترجم إلى اللهجة المغربية بناء على الكتابة الصواتية التي اعتمدها الأستاذ الزّعفراني:

1 - نشعر شعر بالغنا
نعطي تضحيات اللي هو حي
لنص القديس تاعنا
الربي سيدنا بار يوحي
وفي وجه لعزيز علينا، هو سيدنا بار يوحي
الرحمة يا لعزيز المختار
أرسل لينا إلياهو يجيب أخبار

62 - haim zaafrani ; judéo berbères au maroc; awal n spécial; 1990

63 - حاييم الزعفراني «يهود الأندلس والمغرب» ترجمة أحمد شحلان، مطبعة النجاح، ج1، ص12 من مقدمة المترجم.

لحب السبع مول الزوهار

هو سيدنا باريوحي.

تصوّر هذه الأبيات كرامة **باريوحي** الذي جعل منه الشاعر شخصية أسطورية قادرة على تخليص اليهودي من كل ضيق، يتحدى الفقر والموت، وهو رمز القوة والشجاعة.

6- يهود الأندلس والمغرب

juifs d'andalousie et du maghreb, paris, maisonneuve et larose, 1996

ينقسم هذا الكتاب إلى جزأين كبيرين، خصص الباحث الجزء الأول منهما للحديث عن الغرب الإسلامي وبالتحديد الأندلس والمغرب، اللذين شكلا وحدة لا يمكن فصل أجزائها.

لقد وجد الباحث نفسه أمام مجتمعين متوازيين في كل المجالات، سواء تعلق الأمر بالحياة الاجتماعية أو الاقتصادية أو الدينية، وفي كل القضايا التي تعرض للأفراد والجماعات، ومن ثم عقد مقارنة في المجال التشريعي، بين الفتاوى الجماعية «التقانوت» الصادرة بطليطلة، وتلك التي صدرت في فاس والجزائر، كما عقد مقارنة بين نصوص فتاوى «سلمون بن أدرت البرشلوني»، وبين فتاوى «يعقوب أبنسور» وهو من كبار المفتين بفاس.

في الفصل الأول من الكتاب المعنون بـ «مصير يهودية الغرب الإسلامي»، تحدث الزعفراني عن جذور اليهودية في المغرب، والتي ربطها بزمن تاريخي سحيق؛ ذلك أن اليهود هم أول مجموعة غير أمازيغية وفدت على المغرب، ولا تزال تعيش فيه إلى يومنا هذا، كما ناقش المؤلف قضية اليهود المغاربة الذين هم في الأصل مغاربة تهودوا، ولم يفدوا على المغرب من الخارج، وهي قضية قال بها بعض المؤرخين، فيما أنزلها البعض الآخر منهم منزلة الشك مثل «ز.هـــ. هيرشبيرغ» «z.h.hirschberg» الذي بيّن أن قضية الأصل هذه لا أساس لها من الصحة، مادام التسرب اللغوي الأمازيغي غير موجود في الكتابات اليهودية، بينما توجد نصوص يهودية عربية مغربية.

وردّ الباحث عن هذه القضية بقوله، إن الأبحاث الميدانية التي قام بها في أوساط اليهود الناطقين بالأمازيغية في المغرب «ملاحات» الجنوب ووديان الأطلس، أظهرت أن هذه المجموعات كانت تستعمل في تعليمها التقليدي اللغة الأمازيغية.

أما في شبه الجزيرة الإيبيرية، فالوجود اليهودي يعود إلى عهد تاريخي قديم جدّاً، وهو العهد الّذي أقام فيه الفينيقيون وكالتهم التجارية على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، حيث حملوا مثلهم مثل رفاقهم الذين

هم من مملكة يهودا أو مملكة إسرائيل بضائعهم ومعتقداتهم، وتنامى هذا الأمر، يضيف الباحث مع نسبة من الاحتمال، خلال فترة الاستيطان الروماني، بل أيام سقوط البلاد تحت هيمنة القوط، وبعدها فرض على اليهود التمسح أو النفي، وظل الحال على ما هو عليه حتى قيام الحكم العربي الإسلامي، الذي سيفتح لليهود آمالاً جديدة في العيش بأمان في بلاد الأندلس، وهي آمالٌ ستؤدّي إلى تعاون يهودي إسلامي، ما جعل بعض المؤرخين الإسبان يعتبرون هذا التعامل «مؤامرة».

ومن ثم ربط اليهود صلات وثيقة في المجالات الاجتماعية- الاقتصادية والاجتماعية الفكرية مع إخوانهم في المغرب، فأصبح الغرب الإسلامي موطن الثقافة اليهودية، وظلّت يهودية الأندلس تعيش عصرها الذهبي، حتى أفولها ما بين 1492 و1497.

وتطرق الباحث في حديثه عن اليهودية في أرض الإسلام، إلى وضع الذمي المفروض بمقتضى ديانة أغلبية السكان، وقانون أهل الذمة، هذا القانون الذي تحدث عنه الباحث في دار الإسلام، فوصفه بقانون التسامح، إذا ما قيس بالوضع التعسفي الذي عرفته بلاد المسيحية.

ولهذا، فإن اليهود تمتعوا باستقلال كامل في بلاد الإسلام، استقلال إداري وقضائي، كما تمتعوا بعلاقات متينة مع جيرانهم المسلمين.

أما الفصل الثاني المعنون بـ: «اليهودية المغربية بين المشرق والأندلس»، فتحدث الباحث فيه عن موقع المغرب الجغرافي الذي سمح له بالانفتاح على قطبين مثّلا: القوة والعلم، وهما المشرق والأندلس.

ففي المشرق الإسلامي، عاش اليهودي في عصر الخلافة في فضاء سياسي واجتماعي - اقتصادي، ساعدهم على الاندماج والعمل فيه دون أدنى عقدة؛ فاحتل اليهود بذلك مكانة مهمّة في المجال التجاري والفكري. ومن ثم تحدث الباحث عن الحياة الفكرية والاقتصادية في عهد الكؤونيم الذين أشاعوا «المشنا» والتلمود، ويعتبر «سعدية كؤون» أول الكؤونيم الذين عنوا بالتلمود الفلسطيني، ومثله في الغرب الإسلامي «إسحاق الفاسي» و«ابن ميمون» وغيرهما...

أ- فتاوى الكؤونيم

أصبح التراسل في القضايا الشرعية والفقهية نظاماً مؤسساتياً على يد فقهاء الرومان الذين يرجع لهم الفضل في وضع مصطلح «responsa prudentium» (فتاوى العلماء)، وازدهر هذا النظام في الإسلام للحاجة إلى الفتوى التي هي أداة مهمّة في الفكر التشريعي.

وذكر الباحث أن التراسل في أمور الشرع كان سارياً منذ زمن «التنائيم» الذين ضعوا المشنا و«الأمورئيم» الذين حرّروا التلمود.

ب- الغرب الإسلامي: العوالم الأندلسية - المغربية

كوّنت وحدة الأندلس والمغرب الأقصى، طوال قرون ثقافة ومنهجاً فكرياً، وزادت لحملة التبادل الثقافي من قوة التضامن الفعال بين الضفتين، وربطت التقاليد العريقة بين ورثة فاس وأسلاف قرطبة العظام؛ تلك هي صورة الغرب الإسلامي في العصر الوسيط.

لقد عاش اليهود في العصر الذهبي الأندلسي حياة رغدة مكنتهم من النهوض بقسط وافر في حياة البلاد الاقتصادية والفكرية، وأصبحت المدن الغربية والأندلسية (فاس/لوسانية- تطوان/غرناطة) تتساوى فكرياً وحضارياً.

وفي هذا الصدد، عرض الباحث أعلام اليهود الذين أغنوا الفكر اليهودي، ومنهم:

- **يهودا بن قريش** عالم نحوي.

- **دوناش بن لبراط**، عالم لغوي، وهو من أدخل أوزان الشعر العربي في القصيدة العبرية.

- **يهودا حيوج** المعروف بأبي زكريا يحيى بن داود الفاسي، كان على رأس النحاة اليهود في قرطبة.

- **أبو الوليد مروان بن جناح** صاحب كتاب اللمع.

- **داود بن إبراهام الفاسي** صاحب المعجم الكبير «جامع الألفاظ» الذي ألفه في القدس بين سنوات 930 و950.

- **دوناش بن تميم**، فيلسوف لغوي.

- **يعقوب بن دوناش** و**أدونيم بن اللاوي**؛ شاعران مشهوران عاشا في القرن العاشر ببلاد الأمازيغ.

- **السموأل بن يحيى بن عباس المغربي**، من أهل القرن الثاني عشر، عالم وشاعر.

- **الربي إسحاق الفاسي التلمودي** المشهور بصاحب الفتاوى المعروفة، ولد بقلعة في ني حماد (1103-11039).

وفي مجال الرحلة، تحدث الباحث عن رحلات اليهود عبر العالم، إلى القدس أو بلدان أوربا الشمالية، وكانوا يلتقون بيهود يتكلمون العبرية في مناطق أخرى من العالم، وذكر الباحث بعض الرحالة منهم:

- **ألداد الداني** (880-940).

- **أبراهام بن عزرا**، ولد في قرطبة سنة 1092، رحل إلى فرنسا وإنكلترا وإيطاليا وفلسطين، توفي في روما سنة 1167.

وفي الفصل الثالث المعنون بـ «الحوار المجتمعي والثقافي اليهودي/الأندلسي في الأندلس والمغرب»، بدأ الباحث حديثه بالإشارة إلى ملوك المغرب الذين أولوا عناية خاصة لرعاياهم اليهود، وخصّ بالذكر السلطان محمد بن عبد الله، والحسن الأول، والمغفور لهما محمد الخامس والحسن الثاني.

واعتبر المؤلف بلاد المغرب بلد الحوار والتلاقي؛ لأن العلم ازدهر فيها بسرعة، وكان التبادل الثقافي بين يهود المغرب والأندلس متواصلاً.

فقد استقر في الأندلس علماء، كانوا يحظون بشهرة علمية في الأندلس والمغرب معاً، منهم من استقر بقرطبة مثل:

- **يهودا حيوج**، نحوي عاش في القرنين العاشر والحادي عشر.

- **إسحاق بن خلفون**، شاعر عاش في القرن العاشر.

- **حسداي بن شبروط**، أديب ورجل دولة، عاش في القرن العاشر.

- **موسى بن ميمون**، فيلسوف وفقيه وطبيب، عاش بين القرن الثاني والثالث عشر.

ومنهم من استقر بغرناطة مثل:

- **صمويل بن النغريلة**، شاعر وفقيه، وابنه هو يوسف، أديبان ورجلا دول، عاشا بين القرنين العاشر والحادي عشر.

- **موسى بن عزرا الأندلسي**، شاعر وفيلسوف ولغوي عاش في القرن الحادي والثاني عشر(1055-1135)، يعدّ من كبار شعراء الأندلس في زمانه.

- **سعدية بن دنان**، مؤرخ ونحوي وشاعر، عاش في القرن الخامس عشر.

ومنهم من استقر في إشبيلية، ومالقة، وسرقسطة، وبرشلونة، وطليطلة...

ولذلك اعتبر الباحث المدرسة الأندلسية هي المرجع المفضل الذي يعود إليه الكتاب اليهود المغاربة؛ لأن معظمهم ينحدر من عائلات قشتالية.

وعقد الدارس، من باب المقارنة بين الفكر اليهودي والفكر الإسلامي، مقارنة بين مسارين متماثلين في العصر الذهبي (الأندلسي - المغربي) هما: ابن رشد وابن ميمون؛ فهما معاً من أبناء قرطبة، ينتميان إلى حضارة واحدة، ومجتمع متساكن، فقيهان وطبيبان وفيلسوفان متعاصران، فابن ميمون عاش ما بين سنة 1135 و1204، وعاش ابن رشد بين 1126 و1198، وهو العهد الذي عرفت فيه الأندلس أمناً مستتبّاً، على عهد الموحدين.

وإلى جانب الحديث عن الطرائق التعليمية التقليدية التي تعلم بها اليهودي «تلميذ حخام» والمسلم «الأديب الفقيه»، تحدث الباحث عن المجال اللغوي والأدبي، وعن أنواع من الفلسفة والشعر والموسيقى، والتصوف والقبالة، باعتبارها مواطن لقاء من التحاور اليهودي المسلوب، فعمق الباحث النظر فيها، كما خصص إلى ما تقدم، حديثاً مختصراً لمجال يمثل التلاقي الاجتماعي الفكري. إنه مجال الآداب العامية الشعبية، ثم بحث بعد ذلك في الفكر التشريعي والفقهي، وفي أدبيات «الرسبونسا» أو الفتاوى الفردية والأحكام القضائية الربية و«التقانوت» أو الفتاوى الجماعية، وكلّها تراث ترعرع في ظل الفضاء الأندلسي - اليهودي الموريسكي، ويكون جزءاً منه، وبالأخص الفتاوى المعروفة بالفتاوى القشتالية الفاسية (-1492).

وفي الفصل الرابع المعنون بـ «التهجير من إسبانيا والبرتغال»، بيّن ما عاناه اليهود هناك، حيث أخذوا يولّون الأدبار نحو أرض المغرب التي فتحت لهم صدرها، ليسقط بعد ذلك صرح اليهودية الأندلسية مع صدور مراسيم الطرد سنة 1492 و1497.

وإذا كان الباحث قد خصص الجزء الأول للحديث عن يهودية ما قبل التهجير، فإنه خصص الجزء الثاني ليهودية ما بعد التهجير من شبه الجزيرة الأيبيرية.

لقد خص الباحث هذا الجزء بالحديث عن مؤسسات الطوائف اليهودية، وعن أنشطتها الاقتصادية وكذا عن مختلف تجليات ومظاهر التعلق بالوجود والإيمان الديني، وختمه بالحديث عن الظروف التي أدت إلى صدع كيان المجتمع اليهودي في المغرب، كما تحدث عن ذاكرة هذه الكيان الجماعية ووعيه التاريخي اللذين لم تخب جذوتهما أبداً.

وفي الفصل الخامس المعنون بـ «المجتمع اليهودي المغربي»، تحدث الدارس عن المجموعات العرقية والإثنية المكونة للمجتمع اليهودي المغربي، وهي مجموعات تختلف في اللغة والأصل والثقافة، لذلك

كون اليهود المهجرون من الأندلس مجموعة استقر معظمها بالشمال، في طنجة وتطوان وأصيلا ومليلية وشفشاون..، وانتشرت المجموعة الناطقة باللغة العربية في مجموع البلاد، بينما استقرت المجموعة الناطقة بالأمازيغية في بلاد الشلوح بالأطلس وسوس.

وعلى الرغم من هذا التوزيع الجغرافي الذي عرفته الطائفة اليهودية بالمغرب، فإن عناصرها قاموا بهجرات داخلية، من شرق المغرب حتى غربه، ومن شماله حتى جنوبه، بالرغم من صعوبة المواصلات، وكان من أسباب هذه الهجرة ما ذكره الباحث في الآتي:

- يهاجر اليهودي من مدينة إلى أخرى قصد التجارة.

- تهاجر مجموعة من اليهود من منطقة إلى أخرى بسبب الفوضى أو المجاعة والأوبئة.

وتحدث الدارس في الفصل السادس المعنون بـ «المجتمع اليهودي والمتخيل الاجتماعي اليهودي المغربي»، عن متخيل شعبي من خلال مظاهر مختلفة تتسم بطابع الدين والسحر الحاضرين في الشعائر والطقوس؛ فهما اللذان يمنحان للمتخيل الشعبي أبعاداً شمولية وخصائص محلّية، كما أن هناك مظاهر مختلفة تعكس لحظات الوجود المتميزة، وتتغنى بأوقاته الممتعة التي تعرفها الحياة اليومية كالولادة والزواج والطلاق والموت، وما يصاحب ذلك من طقوس واحتفالات.

وخصّص الدارس الفصل السابع للحديث عن الحياة الدينية والشعائر.

ويجدر التنبيه إلى أن ما قدمه الباحث في فصول الجزء الثاني، هو تكرار لما تناوله الباحث بالدرس في كتابه «ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب»، هذا بالإضافة إلى بعض الفقرات المأخوذة من كتاب «يهود المغرب الاجتماعية والاقتصادية والدينية»، ولا سيما ما تعلق منها بأدب الفتاوى والنوازل.

أما خاتمة الكتاب، فتحدث فيها الباحث عن الأسباب التي ساهمت في تمزّق الطوائف اليهودية في العالم العربي، وتأتي هذه الأسباب كالاتي:

- الاكتساح الغربي للبلدان العربية.

- ظهور الحركات الوطنية المطالبة بالاستقلال.

- إعلان الدولة العبرية في فلسطين.

ترجم هذه الدراسة من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، الأستاذ أحمد شحلان، وقدم لها بمقدمة تناول فيها تعريفاً بمدينة الصويرة، التي كانت مستقرّاً لعدد كبير من اليهود، كما عرّف بصاحب الكتاب «الأستاذ

حاييم الزعفراني» الذي ازداد في المدينة المذكورة، ثم ختم المترجم مقدمته للكتاب بتعريف بعض كتب حاييم الزعفراني، ومنها:

- «التربية والتعليم اليهوديين في بلاد الإسلام» 1969.

- «يهود المغرب، الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية» 1972.

- «الشعر اليهودي في الغرب الإسلامي» 1977.

- «الأدب العامي والشعبي اليهودي في الغرب الإسلامي» 1980.

- «ألف عام من حياة اليهود في المغرب» 1983.

- «القبالا حياة تصوف وسحر» 1986.

- «الأخلاق والتصوف (في الموروث اليهودي)» 1991.

والكتاب؛ بناء على ما تقدم، هو نتاج الكتابات السابقة، تحدث فيه الباحث عن يهود الأندلس وعن عصرهم الزّاهي، عصر الفكر والإبداع قبل التهجير، وتحدث عن يهود المغرب البلديين والمهاجرين، متتبعاً البنى الاجتماعية والقانون العام والخاص، وما جدّ في الشريعة بفعل هجرة يهود الأندلس، مبرزاً مظاهر المتخيل الاجتماعي والشعبي الموسومة بالدين والسحر، الحاضرة في الطقوس والاحتفالات.

خاتمة:

لقد كانت غاية المشروع الزعفراني، بعد بعث وإحياء التراث اليهودي في الأندلس والمغرب هي حث بني جلدته على العودة إلى الماضي والتمسك بموروث الأجداد؛ لأنه هو الأساس في صناعة التاريخ والحفاظ على الهوية والذاكرة الجماعية المعرضة للضياع. إنه مشروع نهضوي تبناه الزعفراني، وهو مشروع لا يتحقق إلا بالرجوع إلى السّلف اليهودي في الأندلس والمغرب. لذلك، انشغل بالفكر اليهودي من خلال أشكاله وصنوفه الإبداعية بدءاً بالهجرة من الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، وحتى الهجرة الثانية نحو إسرائيل، أو دول أخرى خلال القرن العشرين. وقد ولدت هذه الفترة التي اشتغل عليها الزعفراني لدى يهود المغرب شعوراً بالحنين، بل بعثت فيهم الحزن والأسى بسب فقدانهم لوطن وجدوا فيه الأمن والسلام والتعايش، إذ لم يشعروا يوماً أنهم أغراب، كما هو الشأن اليوم في بلدان أخرى، ولعل هذا الشعور هو الذي واجهه الباحث بمعاول البحث في تراث أجداده وتراث بني جلدته كي ينفض عنه غبار النسيان، ويرفض ما يسمى بالتاريخ المليء بالدموع. فقد وجد في تاريخ يعود إلى ألفي سنة على أرض معطاء ذاكرة يهودية مغربية تنبض في قلوب اليهود المهاجرين، ويتردد صداها في أرواحهم، وهم يتذكرون الموسيقى والغناء في فلكلورهم وشعائرهم واحتفالاتهم بلالة ميمونة، وهم يقفون في مزاراتهم الجماعية عند قبور أوليائهم المحليين، مثل الربي «عمرام بن ديوان» في وزان، و«موالين الواد» في سطات، بل زاد الحنين أكثر عند اليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل، وهم يأسفون عن وطنهم الأم، وقد تجلى ذلك في كتاباتهم الغاضبة والحزينة، خصوصاً الشعراء الشباب الذين عبروا في إبداعاتهم الجديدة عن الروح المكلومة والثقافة المهمشة، بالإضافة إلى قساوة العيش التي يعانيها شتات ثاني، ولعل هذا الشعور هو الذي أبان عن حقيقة أرض المغرب المعطاء.

المراجع:

1 - مقتطف من كتاب يهود المغرب في كتابات حاييم الزعفراني، د.عبد السلام شرماط، الصادر عن مؤسسة مؤمنون بلاحدود للنشر والتوزيع.

2 - حاييم الزعفراني، «يهود الأندلس والمغرب»، ترجمة أحمد شحلان، مطبعة النجاح الجديدة، الجزء الأول.

3 - حاييم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، ترجمة أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1986

4 - مقدمة كتاب «يهود الأندلس والمغرب» حاييم الزعفراني، ترجمة أحمد شحلان.

1 - zaafrani(h), poesie juive en occident musulman; paris; france, 1977

2 - haim zaafrani ; judéo berbères au maroc; awal n spécial; 1990

3 - haim zaafrani, deux milles ans de vie juive au maroc, paris, geuthner, 1998

4 - haïm zaafrani, pédagogie juive en terre d'islam

5 - haim zaafrani. kabbale; vie mystique et magie; paris ;maison neuve; 1986 et 1996

6 - lerner, d, le talmud torah de meknès, bepm, n 138, mars 1935

7 - paul valence, la yecheba, bepm, n 163, janv, fev, 1939

8 - semachy.d, l'alliance israelite universelle, bepm, n83, octobre, 1927, france

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2022

جميع الحقوق محفوظة © 2022